أبحاث لغوية

- ☐ العلاقة بين طول الكلمة وشيوعها في اللغة العربية
  د. محمد علي الخولي
- ☐ دراسة جديدة عن الزبيدي وكتاب تاج العروس
  د. ابتسام مرهون الصفار
- ☐ في الاسماء المؤنثة لابن الحاجب
  إحسان جعفر
- ☐ التراث اللغوي العربي والدراسات اللغوية الحديثة
  محمد ياسر سليمان
- ☐ موقف ابن جنّي من الضرورات الشعرية
  جواد حسني عبد الرحيم
- ☐ الفارابي اللغوي (8)
  تحقيق : د. أحمد مختار عمر

العلاقة بين طول الكلمة وشيوعها في اللغة العربية

د. محمد علي الخولي
جامعة الملك سعود
الرياض

أهداف البحث :

يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية :

1) هل هناك علاقة بين طول الكلمة وشيوعها في الاستعمال في اللغة العربية ؟

2) إذا كانت هناك علاقة بين طول الكلمة وشيوعها ، فما نوع هذه العلاقة ؟ هل هي موجبة أم سالبة ؟

3) ما درجة هذه العلاقة ؟ هل هي عالية أم منخفضة ؟

4) هل هذه العلاقة ذات دلالة إحصائية أم غير ذات دلالة ؟

الفرضية الصفرية

من الممكن أن نجيب عن جميع الأسئلة السابقة من خلال اختبار الفرضية الصفرية التالية :

لا توجد علاقة ذات دلالة بين طول الكلمة وشيوعها في اللغة العربية . باختبار هذه الفرضية ، يمكننا أن نقبلها أو نرفضها . وفي ضوء قبولها أو رفضها ، تتحدد الاجابات عن الأسئلة الأربعة التي بدأ البحث بها .

طـول الكلمة

لقد حسبت طول الكلمة العربية على أساس نطقها ، لا على أساس كتابتها . وبعبارة أخرى ، حسب طول الكلمة على أساس فونيماتها في شكلها المنطوق ، لا على أساس حروفها في شكلها المكتوب . ويعود السبب في هذا إلى حقيقة أن الكلمة المكتوبة لا تظهر فيها الصوائت القصيرة ؛ في حين أن الشكل المنطوق للكلمة يبيّن جميع مكوّنات الكلمة من صوائت وصوامت .

ولهذا ، كتبت كل كلمة بالأبجدية الصوتية الدولية وعُدَّت جميع فونيماتها ، فكان ذلك مقياسا لطول الكلمة . ولقد اتبع النظام الآتي في الكتابة الفونيمية :

1) إذا كانت الكلمة فعلا ماضيا ، كتبت فونيمياً على أساس تحريك آخرها بالفتح ، مثل غَلَبَ .

2) إذا كانت الكلمة اسما قابلا للتنوين ، كتبت فونيميا على أساس التنوين المرفوع ، مثل حَبْلٌ .

3) إذا كانت الكلمة اسما ممنوعا من الصرف ، كتبت فونيميا على أساس تحريك آخرها بالرفع دون تنوين ، مثل مَنَازِلُ .

شيوع الكلمة

لقد أجريت عدة دراسات حول المفردات الشائعة في اللغة العربية أسرد بعضها هنا[1] :

1) قام موسَى بريل عام 1940م باحصاء 136 ألف كلمة في جريدة الأهرام المصرية وجريدة فلسطين الفلسطينية .

2) قام بيلي عام 1950م باحصاء المفردات الشائعة في الصحافة المصرية حيث أحصَى حوالي 200 ألف كلمة .

3) قام الدكتور فاخر عاقل عام 1953 باحصاء حوالي 180 ألف كلمة وردت في كتب القراءة الابتدائية التي كانت مستخدمة في فلسطين ولبنان وسوريا ومصر والسعودية والعراق .

4) قام يعقوب لانداو باحصاء 136 ألف كلمة في ستين كتابا مصريا متنوعة الموضوعات .

5) قام الدكتور داود عبده باعداد قائمة للمفردات الشائعة لمّا تنشر بعد .

6) قام العديد من طلاب الماجستير والدكتوراة باعداد قوائم للمفردات الشائعة في أطروحاتهم التي لما يتم نشرها بعد .

7) قام الدكتور داود عبده بحصر أشيع 3025 كلمة في قائمة بريل وقائمة عاقل وقائمة لانداو وقائمته ورتبها تنازليا حسب درجات شيوعها في قائمة موحدة[2] سأدعوها قائمة عبده الموحدة أو القائمة الموحدة .

الدراسات السابقة

كما ذكرت ، لقد أجريت عدة دراسات لمعرفة المفردات الشائعة في اللغة العربية . ولكن لم تجر أية دراسات احصائية لمعرفة درجة الارتباط بين شيوع الكلمة وطولها في اللغة العربية .

اختيار العينة اللغوية

في قائمة عبده الموحدة 3025 كلمة مسرودة في 91 صفحة ، كل صفحة فيها عمودان . وهذا يعني أن القائمة الموحدة تحتوي على 182 عمودا . لقد أخذت عينة من كل أربعة أعمدة مبتدئا بالعمود الثاني . وتتكون العينة الواحدة من السبع كلمات الأولى في العمود . وهذا يعني أنني أخذت السبع كلمات الأولى في العمود الثاني ، والسبع كلمات الأولى في العمود السادس ، والسبع كلمات الأولى في العمود العاشر ، والسبع كلمات الأولى في العمود الرابع عشر ، والسبع كلمات الأولى في العمود الثامن عشر والسبع كلمات الأولى في العمود الثاني والعشرين ، وهكذا حتَّى العمود رقم 182 .

المادة اللغوية

باتباع طريقة اختيار العينة المذكورة في الفقرة السابقة ، حصلت على 322 كلمة تبيّن القائمة الموحدة التكرار الكلي لكل منها . وأقصد بالتكرار الكلي تكرار الكلمة في القوائم الأربعة ، أي قائمة بريل وقائمة عاقل وقائمة لانداو وقائمة عبده . ويبين الملحق (1) المفردات المختارة من القائمة الموحدة مع تكرار كل كلمة وطولها محسوبا بالفونيمات ، أي الوحدات الصوتية المجرّدة . وتبدو الكلمات في الملحق (1) مرتبة ترتيبا تنازليا حسب تكرارها .

المعالجة الاحصائية

كما ذكرت ، اختيرت 322 كلمة لتشكل عينة منتظمة Systematic Sample ووضع لكل كلمة تكرارها الكلي في القوائم الأربعة كما أوضحته القائمة الموحدة .

---

(1) دكتور داود عطية عبده . **المفردات الشائعة في اللغة العربية** (الرياض : مطبوعات جامعة الرياض ، 1979م) ، ص ص ب ــ ط .
(2) **نفس المرجع** ، ص ص 251 ــ 305 .

ووضع أيضا لكل كلمة طولها الفونيمي . ثم استخرج معامل الارتباط correlation coefficient بين التكرار والطول . وتبيّن أن هذا المعامل يساوي — 46و .

اختبار الفرضية الصفرية

تحت درجات الحرية degrees of freedom البالغة 320 (= 322 — 2) وفي مستوى 1٪ ، يكون معامل الارتباط — 46و . ذا دلالة احصائية . وهذا يعني أن الفرضية الصفرية القائمة بعدم وجود علاقة بين تكرار الكلمة وطولها هي فرضية مرفوضة .

النتائج :

يفيدنا معامل الارتباط الذي استخرج والذي يساوي — 46و. في الإجابة عن الأسئلة الأربعة التي يهدف البحث إلى الإجابة عنها . ويدل معامل الارتباط المذكور على ما يلي :

1) هناك علاقة بين طول الكلمة وشيوعها في الاستعمال .

2) العلاقة بين طول الكلمة العربية وشيوعها علاقة سالبة ، أي علاقة عكسية . وهذا يعني أنه كلما طالت الكلمة قلّ شيوعها ، وكلما قصرت زاد شيوعها .

3) العلاقة السالبة بين طول الكلمة العربية وشيوعها علاقة متوسطة في درجتها ، أي أنها ليست عالية ولا منخفضة .

4) هذه العلاقة ذات دلالة احصائية كما يدل عليها جدول معاملات الارتباط المعروف في المراجع الاحصائية في مستوى 1٪ .

المناقشة :

لابد أن يتساءل المرء عن أسباب وجود علاقة سالبة بين طول الكلمة وشيوعها . ومن الممكن ردّ هذه الظاهرة إلى العوامل الآتية :

1) يرغب الانسان عادة في اختصار الجهد والوقت عند الكلام ، الأمر الذي يجعله يميل إلى استعمال الكلمات القصيرة ويفضلها على الكلمات الطويلة . فإذا تماثلت كلمتان في المعنى ، مال المرء إلى استعمال الأقصر منهما توفيرا للجهد والوقت .

2) ينطبق الأمر أيضا على استعمال الكلمات في الكتابة ، إذ يميل المرء عادة إلى استعمال الكلمة الأقصر توفيرا للجهد والوقت .

3) من المحتمل أيضا أن الانسان أعطى كلمة قصيرة للشيء أو المكان أو العمل أو المعنى الذي يشير إليه بكثرة منذ العهود الأولى لتكوين اللغة . وبعبارة أخرى ، قد يكون شيوع المعنى سببا في قصر الكلمة أساسا . ونلاحظ هذا في حروف الجر وحروف العطف في اللغة العربية ، وحتّى في اللغة الانجليزية .

المتضمّنات التربوية :

من الممكن أن نستفيد من طبيعة العلاقة بين طول الكلمة وشيوعها في المجال التربوي على النحو التالي :

1) في المراحل الدراسية الأولى ، من الأفضل أن نستخدم الكلمة الأقصر لأنها الأشيع ولأنها الأسهل نطقا وكتابة بالنسبة للطفل .

2) كلما علت المرحلة الدراسية ، أصبح من الممكن أن تميل الكلمات إلى الطول .

3) من الممكن استخدام طول الكلمة كأحد المؤشرات لمستوى صعوبة المادة القرائية . ومن الممكن أن يتم ذلك عن طريق أخذ عينات كافية من كتاب ما مثلا واستخراج معدّل طول الكلمة فيه ومقارنة هذا المعدّل بمعدّل طول الكلمة في كتاب يدرس في مستوى دراسي أعلى أو أدنى . فالشيء السليم أن نجد معدّل طول الكلمة في كتاب للخامس الابتدائي أقل من معدل طولها في كتاب للثالث المتوسط أي الثالث الاعدادي . أما إذا وجدنا العكس ، فهذا يدل أن أحد الكتابين أصعب مما يجب أو أسهل مما يجب . وبالطبع ، من الممكن ادخال معايير أخرى لقياس مستوى الصعوبة من مثل متوسط طول الجملة . فكلما كانت الجملة أطول ، زاد مستوى صعوبتها .

ملحق (1) : مفردات العينة مع التكرار والطول

الرقم المتسلسل	الكلمة	التكرار	الطول	الرقم المتسلسل	الكلمة	التكرار	الطول
1	ثُمَّ	2627	5	27	أمكن	395	7
2	هـو	2508	4	28	قـولٌ	395	6
3	إذا	2468	4	29	انتظرَ	323	9
4	بينَ	2452	5	30	فتـحَ	323	6
5	رأى	2410	4	31	حـزبٌ	322	6
6	يومٌ	2375	6	32	طفْـلٌ	322	6
7	مَـع	2197	4	33	اتَّخـذَ	321	9
8	طريقٌ	819	7	34	اتّفاقٌ	321	10
9	كلمةٌ	794	9	35	مساء	321	7
10	أيٌّ	791	6	36	معلّمٌ	282	10
11	دُوَلٌ	787	7	37	وزراء	282	9
12	هـلْ	787	3	38	ثالـث	280	7
13	قـوَّةٌ	776	8	39	نظـرٌ	279	7
14	عـادَ	774	4	40	أمـورٌ	278	7
15	جيشٌ	556	6	41	بوليس	278	7
16	شعبٌ	554	6	42	سفـرٌ	277	7
17	عيـنٌ	554	6	43	حاكـم	242	7
18	اسـمٌ	549	6	44	نصـفٌ	242	6
19	جريدةٌ	549	9	45	زراعةٌ	241	9
20	ولـدٌ	548	7	46	أدَّى	240	5
21	حـقٌّ	547	6	47	أقبلَ	239	7
22	أيّـها	410	7	48	تـمَّ	239	5
23	نحـوَ	402	5	49	تعليمٌ	238	8
24	محلٌّ	400	8	50	نـوعٌ	218	6
25	بـابٌ	399	5	51	هيئـةٌ	218	7
26	قضيَّةٌ	397	10	52	أنـواعٌ	217	8

الرقم المتسلسل	الكلمة	التكرار	الطول
53	ردَّ	217	5
54	فهمَ	217	6
55	قوميّةٌ	217	11
56	مندوبٌ	217	8
57	تلميذٌ	194	8
58	ذهبٌ	194	7
59	غدٌ	194	5
60	متّحدٌ	194	10
61	نسيَ	194	6
62	تأمَّلَ	193	9
63	ثورةٌ	193	8
64	استقبلَ	179	10
65	سبقَ	179	6
66	كفَى	179	4
67	مياهٌ	179	7
68	باعَ	178	4
69	بدا	178	4
70	درَى	178	4
71	وسطٌ	162	7
72	صحيحٌ	161	7
73	غلامٌ	161	7
74	نقلٌ	161	6
75	برنامجٌ	160	10
76	امبراطور	159	12
77	تالٍ	159	5
78	سينما	149	6
79	شهورٌ	149	6
80	مساعدةٌ	149	11
81	معروفٌ	149	8
82	صدرَ	148	6
83	آلةٌ	147	7
84	ثقةٌ	147	7
85	طيّبٌ	138	8
86	علّق	138	7
87	غناءٌ	138	7
88	موادٌّ	138	7
89	اتّصالٌ	137	10
90	إذاعةٌ	137	9
91	سبعةٌ	137	8
92	غابةٌ	130	7
93	غادرَ	130	6
94	قُرَى	130	4
95	قصيرٌ	130	7
96	أرنبٌ	129	8
97	إشارةٌ	129	9
98	اشتغلَ	129	9
99	بعدٌ	121	6
100	جيّدٌ	121	8
101	دليلٌ	121	7
102	ديوانٌ	121	9
103	طبعٌ	121	6
104	فخامةٌ	121	9
105	قحٌ	121	6
106	عنوانٌ	112	8
107	قائلٌ	112	7
108	نجحَ	112	6
109	تحيّةٌ	111	10
110	دُبٌّ	111	6
111	راديو	111	5
112	سفينةٌ	111	9
113	فرقةٌ	105	8
114	قائمٌ	105	7

الرقم المتسلسل	الكلمة	التكرار	الطول
115	قتالٌ	105	7
116	قـدِمَ	105	6
117	قضايـا	105	6
118	محاولةٌ	105	11
119	مطـرٌ	105	7
120	أجانبُ	98	8
121	تجـارٌ	98	8
122	جـارٌ	98	5
123	ظهـورٌ	98	7
124	كلّـفَ	98	7
125	أحمرُ	97	7
126	استعمالٌ	97	11
127	رعـىٰ	93	4
128	صادقٌ	93	7
129	طيرانٌ	93	9
130	عطـفٌ	93	6
131	ملايينُ	93	9
132	نـجـا	93	4
133	نظرةٌ	93	8
134	عائلةٌ	88	8
135	غلـب	88	6
136	قـصٌّ	88	5
137	هـبٌّ	88	5
138	أنّهمَ	87	9
139	حبـلٌ	87	6
140	حقّق	87	7
141	جَمَـلٌ	83	7
142	حرارةٌ	83	9
143	حصانٌ	83	7
144	حمـاسٌ	83	7
145	حلـةٌ	83	7

الرقم المتسلسل	الكلمة	التكرار	الطول
146	سلامةٌ	83	9
147	شـرعَ	83	6
148	اقتربَ	79	9
149	صداقةٌ	79	9
150	ضَمِـنَ	79	6
151	مهـمٌّ	79	8
152	نطـاقٌ	79	7
153	وزّعَ	79	7
154	وسيلةٌ	79	9
155	فقـرٌ	75	6
156	مجموعٌ	75	9
157	منازل	75	8
158	مناطق	75	8
159	وقـفَ	75	6
160	ابتسامٌ	74	10
161	أبطالٌ	74	7
162	نـواحٍ	71	7
163	آلامٌ	70	7
164	أدارَ	70	6
165	اعتداءٌ	70	10
166	ألعابٌ	70	8
167	بـردٌ	70	6
168	تعيينٌ	70	9
169	تدريبٌ	67	8
170	توقّفَ	67	10
171	حكايةٌ	67	9
172	ذبابٌ	67	7
173	رائـعٌ	67	7
174	صعوبةٌ	67	9
175	عديدٌ	67	7
176	ثـورٌ	64	6

الرقم المتسلسل	الكلمة	التكرار	الطول
177	جلبَ	64	6
178	حقائقُ	64	8
179	زرعٌ	64	6
180	صحيفةٌ	64	9
181	عاملَ	64	7
182	عشَرَ	64	6
183	اجتازَ	61	7
184	استراحَ	61	9
185	أصواتٌ	61	8
186	أواخرُ	61	8
187	بـأسٌ	61	6
188	تقـرّرَ	61	9
189	جـوازٌ	61	7
190	مناظـرُ	59	8
191	نشيطٌ	59	7
192	نمـل	59	6
193	وزنٌ	59	6
194	اتخـاذ	58	10
195	أثبتَ	58	7
196	احتجاجٌ	58	10
197	ضيـفٌ	56	6
198	عناصـرُ	56	8
199	فـاتَ	56	4
200	فـراخٌ	56	7
201	قصيدةٌ	56	9
202	كسـبَ	56	9
203	لفـظٌ	56	6
204	المسيح	54	7
205	منزلةٌ	54	10
206	نبـتَ	54	6
207	نـصّ	54	5

الرقم المتسلسل	الكلمة	التكرار	الطول
208	همَّـةٌ	54	8
209	وفـودٌ	54	7
210	أساليب	53	8
211	إضافةٌ	51	8
212	أطـلّ	51	7
213	اعتمادٌ	51	10
214	التـقَى	51	7
215	أمـواجٌ	51	7
216	بطاقـةٌ	51	9
217	تأجيـلٌ	51	9
218	أطـرافٌ	49	8
219	أفـقٌ	49	7
220	بالـغٌ	49	7
221	بطريرك	49	11
222	تأثّـرَ	49	9
223	ترتيبٌ	49	8
224	تعبيرٌ	49	8
225	احتمالٌ	47	10
226	أخـذٌ	47	6
227	أعماقٌ	47	8
228	أعـوامٌ	47	8
229	آمـنٌ	47	7
230	انتصارٌ	47	10
231	أنتم	47	6
232	مخازنُ	46	8
233	ناسـكٌ	46	7
234	اتّهامٌ	45	10
235	أدلَى	45	5
236	أصابعُ	45	8
237	اقتضى	45	7
238	انتخبَ	45	9

الرقم المتسلسل	الكلمة	التكرار	الطول
239	عقبةٌ	44	9
240	علامةٌ	44	9
241	عليمٌ	44	6
242	عمٌّ	44	6
243	غرقَ	44	6
244	فخرٌ	44	6
245	قبّرةٌ	44	10
246	حذاءٌ	42	7
247	حفرَ	42	6
248	حلمٌ	42	6
249	خصمٌ	42	6
250	دفعٌ	42	6
251	ذلٌّ	42	6
252	ربّي	42	5
253	منطقٌ	41	8
254	نسيمٌ	41	7
255	نوًى	41	4
256	هلكَ	41	6
257	يتيمٌ	41	7
258	الأحدُ	40	9
259	امتحانٌ	40	10
260	سحرَ	39	6
261	سهولٌ	39	7
262	صوفٌ	39	5
263	ظلمَ	39	6
264	فاجأَ	39	6
265	فخمٌ	39	6
266	فراشٌ	39	7
267	براميلُ	37	8
268	تارةً	37	7
269	تبادلٌ	37	9
270	تقليدٌ	37	8
271	تهنئةٌ	37	10
272	ثغرٌ	37	6
273	جارٍ	37	5
274	سرى	36	4
275	سنبلٌ	36	8
276	سياحٌ	36	8
277	شبهٌ	36	6
278	شجعَ	36	7
279	شطرٌ	36	6
280	صبّ	36	5
281	منافع	35	8
282	ميلٌ	35	6
283	ميّزَ	35	7
284	نيرانٌ	35	7
285	هذّب	35	7
286	ويحَ	35	5
287	آفاقٌ	34	6
288	رقبةٌ	33	9
289	سافلٌ	33	7
290	شربٌ	33	6
291	صعبَ	33	6
292	طَربٌ	33	7
293	طردٌ	33	6
294	طغى	33	4
295	مراكبُ	32	8
296	مظلمٌ	32	8
297	موزٌ	32	6
298	نزُولٌ	32	7
299	نقطٌ	32	7
300	هدىً	32	5
301	وحيٌ	32	6

الرقم المتسلسل	الكلمة	التكرار	الطول
302	مهـارةٌ	31	9
303	اختلـطَ	30	9
304	استغلالٌ	30	11
305	أسَّسَ	30	7
306	أضـاعَ	30	6
307	أغـراضٌ	30	8
308	أقـزامٌ	30	8
309	بـدرٌ	29	6
310	ترجـمَ	29	7
311	تصفيقٌ	29	8
312	تقاريرُ	29	8
313	تيـارٌ	29	8
314	جـزرٌ	29	7
315	خُفراء	29	9
316	مفـتٍ	28	6
317	مقدرةٌ	28	10
318	ميادينُ	28	8
319	ميزانٌ	28	7
320	نتـجَ	28	6
321	وساطةٌ	28	9
322	وصـل	28	6

المراجع

الحسون ، عبد الرحمن ، وهرمز ، صباح . **الثروة اللغوية عند الأطفال من خلال أقاصيصهم** . بغداد : وزارة التعليم العالي ، 1973 .

خاطر ، محمود رشدي . **قائمة المفردات الشائعة في اللغة العربية** . سرس الليان : المركز الدولي للتربية الأساسية في العالم العربي ، 1955 .

عبده ، داود عطية . **المفردات الشائعة في اللغة العربية** . الرياض . جامعة الرياض ، 1979م .

عاقل ، فاخر . **المفردات الأساسية للقراءة الابتدائية** . دمشق : 1953 .

وزارة التربية والارشاد القومي . **قائمة تشتمل على كلمات كتب السنة الأولى والثانية من تعليم الابتدائي** . ليبيا : 1970 .

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم . **المعجم الأساسي لتلاميذ المدارس الابتدائية بالمغرب** . الرباط : معهد الدراسات والتعريب ، 1969 .

Landau, Jacob M. A Word Count of Modern Arabic Prose.
New York : American Council of Learned Societies, 1959.

تصويب

تصحيحا لخطأ مطبعي أغفل تداركه في اسم كاتب البحث «احتمالات المعاني في بعض التراكيب العربية» . والمنشور ضمن أبحاث الجزء الأول من العدد التاسع عشر (19) . في صفحة 79 . ليس للدكتور عفيف دمشقية . ومع الاعتذار لكاتبه الأستاذ الباحث الدكتور محمد علي الخولي . نلفت انتباه السادة القراء إلى أن الصواب هو كالتالي :

احتمالات المعاني
في بعض التراكيب العربية

للدكتور محمد علي الخولي
جامعة الملك سعود – الرياض

دراسة جديدة عن
الزبيدي وكتاب تاج العروس

د. ابتسام مرهون الصفار
جامعة بغداد / كلية التربية

(الزبيدي في كتابه تاج العروس) كتاب صدر في العراق في عام 1981 / 1401 في دار الكتاب للطباعة ، ومؤلفه هو الدكتور هاشم طه شلاش ، وأصل الكتاب رسالة دكتوراه قدمها المؤلف المذكور إلى جامعة بغداد ، ونال بها درجة دكتوراه بتقدير امتياز في آداب اللغة العربية بتاريخ 19 / 3 /1978 ، والكتاب مهم جدا لمكانة الزبيدي موضوع البحث ، وأهمية كتابه (التاج) بالذات ، كما أن أهميته تتجلى في الجهد الكبير الذي لابد أن يبذله الباحث بجرأة لدراسة هذا الكتاب على جلالة قدره ، وضخامة مجلداته .

والاطلاع على هذا البحث القيم يفيد القارئ المختص باللغة العربية عامة ، وبالمعاجم اللغوية بشكل خاص كما أنه يفيد الباحثين في المنهج الذي سار عليه المؤلف ، والذي يظهر صبره ، ودأبه في تتبع كتاب تاج العروس بعد قراءته قراءة دقيقة واعية خرج منها بتحليل لنصوصه ، وتوزيع ، وتصنيف لمصادره وموارده ، وفهم لنصوصه وآرائه أهّلته أخيرا إلى كتابة مأخذ تتبعها أو نقلها عن العلماء والمحققين على صاحب التاج .

يقع الكتاب في (718 صفحة) وصنف إلى خمسة أبواب كبيرة :

الباب الأول : بحث في حياة السيد محمد مرتضى الزّبيدي، وقد اعتمد فيه على ما كتبه الزبيدي نفسه في مؤلفاته واجازاته ورسائله إلى معارفه وتتصدر كتاباته مقدمة تاج العروس نفسها ثم الاجازات التي احتفظ بها عبد الحي الكتاني في كتابه (فهرس الفهارس) أما المؤرخون الذين كتبوا عن الزبيدي فأهمهم —كما يقول المؤلف— عبد الرحمن الجبرتي صاحب كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، فهو خير من قدم لنا ترجمة واسعة لحياة الزبيدي ولا عجب في ذلك ، فالجبرتي أحد تلامذته ، والزبيدي هو الذي أشار عليه بتأليف كتابه هذا .

وترجم للزبيدي عبد الحي الكتاني ترجمة واسعة نقل مادتها من كتب مهمة عديدة ذكرت الزبيدي ، ومن الاجازات التي كتبها الزبيدي نفسه ، وذكر فيها معلومات عن حياته ومصنفاته . ومع أن المؤلف تتبع مترجمي الزبيدي واحدا واحدا حسب أهميتهم فيما يقدمون من معلومات دقيقة عن الرجل منقولة أو منسوخة عن غيرهم فإنه لم يدع كتابا أو بحثا ورد فيه ذكر الزبيدي إلا وأشار إليه ووضعه موضعه من حيث أهميته في قيمة ما يذكرون أو يكتبون عن الزبيدي .

ومع أن د. هاشم شلاش عد الجبرتي من خير من قدم

ترجمة واسعة للزبيدي ، فإنه وجد فيما كتبه عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس أصالة في البحث والتتبع . فالكثير من المصادر التي ينقل منها الكتاني لم تقع بأيدينا ، ويظهر أنها مازالت مخطوطة تنتظر أن يزال عنها الغبار لترى النور حتّى تقدم لنا المزيد عن حياة الزبيدي . والكتاني فضلا عن استيفائه ودقة بحثه ناقد لا يترك نصا يحتاج إلى مناقشة إلا وقف عنده ، فهو يقف عند قسم من نصوص الجبرتي معقبا عليها ، ومبينا تعصبه على شيخه الزبيدي .

ويناقش المؤلف قضية مسقط رأس الزبيدي لأن المترجمين له يختلفون فيها فقد ذكر قسم منهم مدينة زبيد مكانا لذلك معتمدين على ما يذكره الزبيدي عن نفسه عند ذكره اسمه ونسبه ولقبه ، إذ يعقب على ذلك بقوله (وأكثر المترجمين متفقون على أن مسقط رأسه مدينة بلكرام بالهند) مع أن الزبيدي لم يذكر اسم هذه المدينة في كتابه التاج وذكر غيرها من اسماء المواضع والبلدان ... وقد رجح المؤلف كونه هندي المولد لعدة أمور :

1 — ان قسما ممن ترجموا له من الهنود وهم أعرف به من غيرهم كصديق حسن خان مؤلف (أبجد العلوم) .

2 — ان مجلة البيان الهندية تترجم للسيد محمد مرتضى على أنه من علماء الهند ، وممن ولد في مدينة بلكرام مشيرة إلى من نشأ في هذه المدينة من علماء الاسلام .

3 — ابن عبد الحي الحسني يذكر السيد مرتضى بن محمد الحسيني الواسطي البلكرامي في كتابه الثقافة الاسلامية في الهند، ومؤلف الكتاب هندي .

4 — ما ذكره مير غلام علي آزاد البلكرامي في كتابه مآثر الكرام في تاريخ بلكرام ونقله صاحب (أبجد العلوم) .

5 — وذكر الزبيدي نفسه عدة شيوخ من الهنود منهم نور الدين القبولي الذي قال فيه (وأنشدنا شيخنا نور الدين محمد القبولي المتوفى بحضرة دهلي سنة 1159) وقال في مكان آخر (وقبولة بالفتح حصن منيع بالهند ، وإليه ينسب شيخنا العلامة المحدث الشيخ نور الدين محمد القبولي مات بدهلي سنة 1160هـ) . ويقف المؤلف عند هذين النصين ويعتبرهما مهمين جداً ، إذ يفهم منهما أن السيد محمد مرتضى كان عمره أربعة عشر عاما أو خمسة عشر عاما عندما توفي شيخه القبولي . ولا شك أن ذلك كان بالهند ، إذ ليس هناك أي إشارة إلى انتقال القبولي إلى اليمن أو إلى أي مكان آخر حتّى يلتقي به السيد محمد مرتضى ثم أن الزبيدي يشير إلى أقدم تاريخ لوجوده في اليمن وهو سنة 1162هـ الذي هو تاريخ سماعه الدروس الفقهية والحديثية على شيخه سليمان بن يحيى ابن عمر الاهدل في مسجد الشماخ في اليمن ، وهذا يقوي ما نذهب إليه من أن الفترة التي عاش فيها قبل هذا التاريخ كان في الهند .

وإذا كان تحليل الدكتور هاشم شلاش لهذين النصين مهما جدا في توكيد نسبة أصل الزبيدي إلى الهند ، فإنه قد فاته — فيما أظن — الاستفادة من هذين النصين بالذات فيما يتعلق باحتمال معرفة الزبيدي اللغة الهندية إذا كان قد عاش فعلا في الهند خمسة عشر عاما ، وهل نجد تحقيقا لهذا الاحتمال في تحقيقات الزبيدي اللغوية ؟ خاصة أن المؤلف بحث مسألة معرفة الزبيدي للغة الفارسية والتركية وبعض لسان الكرج ، ولم يذكر الهندية وهي أولى به من اللغات الثلاث المذكورة . ولعل المؤلف لم يلتفت إلى هذه الملاحظة لأنه اعتمد في تتبعه لمعرفة الزبيدي للغات الأجنبية تاج العروس نفسه حيث جمع ما يمكن جمعه من شواهد تدل على معرفته الفارسية أو التركية من خلال شروحه للمواد اللغوية فلما لم يجد إشارة يرجع فيها الزبيدي أصل كلمة إلى الهندية لم يلتفت إلى هذه القضية ، علما بأن الزبيدي ذكر شيخه ولي الله الدهلوي وقال فيه (وحضرت منزله في دهلي) وهذا دليل آخر يقتضي معرفته الهندية .

وتحدث المؤلف بعد هذا عن نشأة الزبيدي ورحلاته وتتبع المدن التي ذكرها في اجازاته ومؤلفاته وعد فيها الهندية واليمانية والحجازية والمصرية والشامية .

ثم عدد جوانب دراسته الحديث واللغة والتصوف والفقه والانساب .

ثم بحث في شيوخه الهنود واليمانيين والحضرميين

والبحرانيين والعراقيين والحجازيين والمغاربة والمصريين والشاميين وغيرهم . ثم تتبع تدريساته وحاول استقصاء اسماء ما درسه من كتب ومعارف من خلال ما كتب عنه كما تناول شهرته العلمية وتلامذته ومذهبه وعقيدته وطريقته الصوفية ثم عاد إلى ذكر أسرته والبحث في صفاته العامة وأدبه وأسلوبه .

أما الفصل الثاني من الباب الأول فقد خصّه للحديث عن مصنفاته وقسمها حسب الفنون مثل كتب الحديث ، كتب اللغة ، كتب التصوف ، كتب الفقه والأصول ، كتب العقائد ، كتب التفسير ، وكتب رجال السند والمشيخات وكتب التراجم والطبقات ، كتب الانساب ، كتب الخط ، الجغرافية ، الأدب وكتب أخرى في موضوعات مختلفة وهو في كل هذه القوائم التي أعدها وتتبع ذكر أسمائها وبحث عن مظانها في خزانات العالم إن كانت مخطوطة ..... وبذا ييسر المؤلف الطريق لمن يريد استكمال الجوانب الأخرى من ثقافة الزبيدي أو مؤلفاته .

أما الباب الثاني فقد خصّه للبحث في تاج العروس نفسه أو خص الفصل الأول منه لدراسة القاموس المحيط والفصل الثاني لدراسة تاج العروس وأهداف تأليفه ثم تحدث عن نسخه الخطية ، وعن طبعاته وقد اعتمد المؤلف في بحثه على طبعتي الكويت في أجزائها الستة عشر ، وأتم العمل بما بقي منه من أجزاء المطبعة الخيرية ثم تحدث عن توثيق التاج ، وعن نظر المؤلفين فيه .

أما الباب الثالث فهو عن مصادر التاج والفصل الأول منه عن السماع والرواية والرؤية والمشاهدة والمعرفة والخبرات الشخصية والفصل الثاني عن النقل من الكتب .

وخلاصة رأي المؤلف في هذا الباب أنه لم يجتمع في معجم من معجمات اللغة ما اجتمع في التاج من المصادر الكثيرة فقد نقل المؤلف مواد معجمات اللغة التي سبقته وكتب اللغة الأخرى اما بطريق النقل المباشر واما بالواسطة وأضاف مادة جديدة من المصادر التي اطلع عليها وأكثر مواد هذه المصادر لا تتعلق باللغة لأن السابقين استوفوا موادها وانما تتصل بمظاهر الحياة المتطورة التي تتجدد كلما سارت عجلة الزمن فالمادة الجديدة التي يقدمها التاج تتعلق بالتاريخ والانساب والطب والمعرب والدخيل والمولد والعامي وغيرها ومع ذلك اطلع الزبيدي على عدة مئات من الكتب التي لو جمعت مع كتب غيره مما يمثل موارد التاج لكانت بضعة آلاف كما يقول المؤلف .

وقد نقل المؤلف رأيا طريفا للدكتور علي حلمي موسى اعتمد فيه الأخير على الطرق العلمية في البحث العلمي وهو جهاز الكومبيوتر حيث قام بدراسة احصائية لجذور معجم تاج العروس (بالاشتراك مع د. عبد الصبور شاهين) وطبع في مطبوعات (جامعة الكويت) ونتيجة احصاء الكومبيوتر هي أن (مادة التاج في مواكبتها للانتاج اللغوي تغطي في الواقع اثني عشر قرنا من عمر اللغة بعد قرون الجاهلية أي بما يزيد خمسة قرون على ما في معجم لسان العرب) .

أما في الفصل الثاني وهو النقل في الكتب فقد بحث فيه د. هاشم شلاش نقول الزبيدي وأورد ملاحظات مهمة منها تعدد نسخ الكتب التي اعتمد عليها الزبيدي ، واهتمامه بخطوط الكتب لتوثيق ما ينقل عنها وتقويم الكتب وتقويم المؤلفين ثم تتبع طرق الزبيدي في ذكره الكتب كأن يذكر اسم الكتاب والمؤلف كاملا أو يكتفي بالأول والثاني فقط ثم طريقة ذكره لاسماء الكتب كاختصاره لبعض الأسماء أو ذكرها بأكثر من تسمية على سبيل الاختصار أو الوهم أحيانا ، ثم صنف المؤلف أساليب نقل الزبيدي عن المصادر والكتب ورأى أن طرقه كانت متعددة إذ قد ينقل النص كاملا أو ينقله بتغير بعض الفاظه أو يختصر ما ينقله اختصارا كبيرا وأهم فقرة في هذا الفصل هي فقرة قائمة المصادر إذ فيها تظهر قيمة التاج وأهميته في كثرة المصادر التي ينقل عنها الزبيدي وتنوعها حتّى أنها شملت جميع أنواع المعارف في زمانه مما يؤكد كون كتاب التاج موسوعة فكرية أكثر من كونه معجما لغويا متخصصا وقد تتبع د. شلاش بدقة نقول الزبيدي ليعرف ما إذ كانت هذه النقول مباشرة عن الكتب التي يذكرها أو أنه نقلها عن مصادر أخرى . وقد رتب المؤلف شلاش قائمة مهمة صنف فيها اسماء الكتب التي رجع إليها الزبيدي حسب

فنونها فالفقرة الأولى المعجمات العامة مثل احكام الأساس للمنادى المتوفى سنة 1031 وأساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة 538هـ واضاءة الراموس لأبي العباس أحمد بن عبد العزيز الفيلالي المتوفى سنة 1175هـ وكتاب إضاءة الراموس واقاضة الناموس على اضاءة القاموس لأبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي المتوفى سنة 1170هـ وفيما يخص الكتاب الأخير فإن الزبيدي ذكره وخصه بالثناء قائلا (وهو أجمع ما كتب عليه يعني القاموس المحيط وهو عمدتي في هذا الفن والمقلد جيدي العاطل بحلي تقريره المستحسن وشرحه هذا عندي في مجلدين ضخمين) وتعقيبا على قول الزبيدي نقول بأنه يفتح بابا جديدا للبحث فإذا كان الزبيدي قد نقل معظم مادة الراموس في كتابه واعتمد عليه اعتمادا تاما فإن المقارنة بين التاج والراموس الذي تحتفظ دار الكتب المصرية بثلاث نسخ منه قد توصلنا إلى بيان أهمية الزبيدي في مقدار ما أضافه على شروح استاذه محمد بن الطيب الفاسي على القاموس المحيط وبعد المعجمات العامة أورد قائمة المعجمات الخاصة وأدرج ضمنها كتب الغريب ثم كتب الاسماء والصفات وأدرج ضمنها كتاب الغريب المصنف لأبي عبد القاسم بن سلام المتوفى سنة 224هـ وأظن أن حقه أن يدرج ضمن القائمة الأولى وهي كتب الغريب.

ثم ذكر كتب المثلثات والأضداد والنوادر والفروق والضاد والظاء والمشترك اللغوي ثم كتب المعرب والدخيل .....وهذه كلها ذكرها ضمن قائمة المعجمات، وتلاها بقائمة أخرى باسم كتب النحو ثم قائمة بكتب الصرف وأخرى بكتب الدراسات اللغوية، ثم كتب لغوية أخرى وقد أدرج ضمن هذه المجموعة كتاب النصوص لأبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي المتوفى سنة 417هـ ونرى أن مكانه ليس قائمة الكتب اللغوية بل الكتب الأدبية لأنه ليس من كتب اللغة بل كتب الأدب وقد اطلعت على نسخة الكتاب الخطية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط ورأيته أقرب إلى عيون الأخبار والعقد الفريد منه إلى كتب اللغة التي وضع د. هاشم شلاش كتاب الفصوص ضمنها.

والفقرة الثالثة من قائمة المصادر هي الكتب الأدبية، وقد قسمها إلى مجاميع أيضا، مجموعة الدواوين، والمجاميع الشعرية، ثم شروح كتب الأدب ثم قائمة بكتب البلاغة والنقد الأدبي ثم فقرة أخرى بعنوان كتب الدراسات القرآنية وقسمها إلى مجموعات أيضا، علوم القرآن، القراءات، التفسير، ثم كتب الحديث النبوي وتشمل المتون والأسانيد، والاجزاء الحديثية، والمسلسلات، والاربعينات، والعشاريات ثم شروح كتب الحديث وكتب الفتاوي الحديثية وكتب آداب المحدثين، وكتب مصطلح الحديث، وعلل الحديث، ثم كتب الفقه، وأصول الفقه، وكتب الطب، وكتب الجغرافية، والبلدان، والانواء، والرحلات، وقد أدرج في القائمة كتابين كان الأولى بهما قائمة الكتب التأريخية لأنهما ليسا في الجغرافية أو الرحلات إنما هما أقرب إلى التاريخ مثل كتاب قوانين الدواوين للأسعد بن مماتي الدمشقي المتوفى سنة 606هـ، ولم يشر المؤلف كعادته إلى طبعة الكتاب، وإنما أشار إلى كتاب هدية العارفين 1 / 205 ونقل عنه بأن الكتاب يتعلق بدواوين مصر ورسومها ... والكتاب مطبوع في مصر ومادته ليست في الجغرافية كما قلنا انما هو في رسوم الوزارة وأصولها وما يتبع ذلك من حديث تاريخي ... والكتاب الثاني الذي أدرجه في هذه القائمة مرتبط بالأول لأنه مختصر له، وهو كتاب مختصر قوانين الدواوين لشرف الدين يحيى بن المعتز بن الجيعان المتوفى سنة 885هـ ثم ذكر كتب العقائد وعلم الكلام، وكتب التاريخ وقسّمها إلى مجاميع كتب التاريخ العام، وقد أدرج فيها كتابا في الجغرافية وهو الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن محمد بن عبد الله الحميدي المتوفى سنة 900هـ وقد أشار في هذا الكتاب إلى كشف الظنون 1/ 920 ونقل عنه أنه في أخبار الأقطار، ولم يشر إلى كونه مطبوعا والكتاب مطبوع باسم (الروض المعطار في خبر الأقطار) بتحقيق احسان عباس وطبع في مكتبة لبنان 1975 وحقه كما هو واضح أن يدرج ضمن كتب الجغرافية مثل معجم ما استعجم، أو معجم البلدان لياقوت الحمدي.

ثم ذكر قوائم بكتب السيرة النبوية وكتب التراجم الخاصة وقسمها إلى كتب الصحابة، وكتب رجال

الحديث ، وأحوالهم وأسمائهم ، ثم كتب رجال الفقه وكتب الشعراء وكتب الحفاظ وكتب المفسرين ، وكتب الأدباء ، وكتب الموالي ، ثم كتب التراجم العامة ، وأدرج ضمنها كتاب التلقيح لابن الجوزي المتوفى سنة 597هـ ، وذكر أن قسما منه مطبوع طبعة بروكلمان في ليدن سنة 1982 بعنوان تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار وأهل الآثار كما هو معلوم هم أهل الحديث فالكتاب اذن حقه أن يدرج ضمن القائمة التي مرت بنا من قبل ، وهي قائمة تراجم رجال الحديث ، وليس ضمن التراجم العامة .

ثم ذكر معاجم الشيوخ، وأدرج ضمن هذه الكتب كتاب معجم السفر للسلفي المتوفى سنة 576هـ ، ولم يشر أيضا إلى كون الكتاب مطبوعا ، وهو مطبوع في المجمع العلمي العراقي بتحقيق الدكتورة بهيجة الحسني .

ثم ذكر قائمة باسم كتب في فنون أخرى مثل كتاب الاحجار للتيفاشي وكتاب الاحياء للغزالي ثم قائمة سماها كتب لم نقف على طبيعة موضوعاتها .

وقد أدرج فيها أسماء الكتب التي لا توحي عناوينها بمضامينها خاصة وأنها من الكتب غير المشهورة أو المتداولة بحيث يعسر على الباحث أن يصنفها ضمن قوائمه التي أعدها وقد بدأها بكتاب استحلاب ارتقاء الغرف للحساوي ثم كتاب الأوليات لابن عساكر ثم أسماء كتب لم يذكر مؤلفوها مثل بهجة الأسرار والبيجة ولعلها كتاب واحد وكتاب التحبير لأبي سعد واكتفى المؤلف بعبارة (نقل منه في التاج) وعلق في الهامش بعبارة نقل منه ما يتعلق ببعض رجال الحديث وهذا وهم لأنه المرجح أن الكتاب المذكور هو كتاب التحبير وليس التحبير وهو كتاب مطبوع وأبو سعد الذي أشار إليه هو أبو سعد السمعاني المتوفى سنة 562هـ وكتابه نشر بتحقيق منيرة ناجي سالم وطبع في العراق في مطبعة الارشاد سنة 1975م .

ثم أعقب هذه القائمة بقائمة المصادر التي استقى منها الزبيدي بعض معلوماته ولم يذكر أسماءها بل صرح بأسماء مؤلفيها ابن أبي الدنيا ، وابن أبي مريم وابن خرزاذبة ... إلى آخره .....

هذه القوائم أخذت من المؤلف جهدا كبيرا في استقصائها من خلال كتاب تاج العروس الضخم واستغرق تنظيمها في الكتاب من صفحة 277 ــ 388 .

ثم درس المؤلف منهج التاج دراسة تفصيلية حيث قسم الكتاب إلى موضوعات هي شرح خطبة المصنف نظام الكتاب وأبوابه ، ومواده ، شرح مادة القاموس المستدرك ، المكملات ، الخاتمة .

أما الفصل الثاني من هذا الباب فقد خصه د. شلاش للحديث عن الظواهر المنهجية في التاج وبحث فيه قضية الاستشهاد والشواهد وعرض موقف المتشددين من اللغويين وموقف المتسامحين في التمثل بالشعر الاسلامي والمحدث ورأى المؤلف أن الزبيدي لم يكتف بالتمثل بشعر الجاهليين والاسلاميين إذ أنه استشهد بشعراء عباسيين كابن المعتز وابن نباتة السعدي وابن الرومي والعماد الاصفهاني إلا أنه لاحظ بأن الشواهد العباسية لم ترد كلها للاستشهاد وإنما أورد الزبيدي قسما منها لبيان ما وقع أصحابها فيها من أوهام وهذه ملاحظة مهمة جدا لأن المتصفح لكتاب التاج إذا عرض أمامه شاهد لشاعر عباسي خيل إليه أن الزبيدي ممن تسامح وتمثل بأشعار المولدين ولكن استقصاء المؤلف للشواهد العباسية التي تمثل بها الزبيدي أوصله إلى هذه الملاحظة المهمة وهي أنه لم يأت بها للتمثل لصحة المادة اللغوية التي يشرحها وانما لبيان خطأ وقع فيه الشعراء العباسيون أو أنه تمثل بها للاستشهاد على أسماء المدن والمواضع والأعلام وليس في هذا الاستشهاد بأس من الناحية اللغوية .

أما الشعراء المتأخرون والشعراء المعاصرون فقد ذكر منهم أحمد بن موسى الذي وصفه بأنه من الشعراء المتأخرين والسيوطي والشهاب الخفاجي وأبا الحجاج الطرطوشي وما ذكره الزبيدي من شعر هؤلاء تغلب عليه الصنعة التعليمية .

وفيما يتعلق بالشواهد التي نقلها الزبيدي بحث المؤلف شلاش إشارة الزبيدي إلى اختلاف الروايات وإلى تكملة الشواهد أو الاشارة إلى مكانه وجود الشاهد في المظان المختلفة ثم ذكره لمناسبة الشاهد أو شرحه ثم بحث في

الفقرة الثانية الشواهد النثرية ويأتي في مقدمتها القرآن الكريم ثم الحديث النبوي حيث لاحظ المؤلف أن الزبيدي استشهد كثيرا بالحديث النبوي ولعل اهتمامه بالحديث نابع من كونه كلام أفصح الخلق من جهة وكون العلماء اهتموا بتحقيق نصوصه اهتماما لم يحظ به علم آخر من جهة أخرى ثم ذكر أقوال الفصحاء والشاهد المثلي ويريد به شواهد الأمثال ثم الشواهد المصنوعة التي وضعها اللغويون ليتمثلوا لتراكيبهم ومفرداتهم ومعانيهم .

ثم بحث موضوع النقد وأراد به ما بحثه الزبيدي بشأن النقد الموجه إلى صاحب القاموس ، وما نقده هو أي الزبيدي على صاحب القاموس كخروجه على قاعدته في الاختصار أو خروجه على قاعدته في ايراد صيغة المذكر واتباعها المؤنث . ومن النقد الذي وجهه الزبيدي إلى صاحب القاموس سوء تعبيره أحيانا أو سوء ضبطه أو وضعه الألفاظ في غير مواضعها أو تقصيره في اغفال كثير من المواد اللغوية كل هذه الفقرات عالجها المؤلف بتتبع الأمثلة والشواهد التي جمعها من خلال قراءاته لكتاب تاج العروس . كما أن المؤلف لم ينس أن يكتب مادة في هذا الفصل يخص فيها انصاف الفيروزابادي ودفاع الزبيدي عنه في كثير من المواضع التي ذكر بأنه انتقد عليها أو عدت عيبا عليه .

كما أنه خص فقرة من بحثه للحديث عن النقد الذي وجهه الزبيدي لشيخه أبي الطيب إذ لم يكتف الزبيدي بالنقل عن شيخه بل جعل نفسه مدافعا عن صاحب القاموس ازاء النقد القاسي الذي وجهه إليه شيخه أبو الطيب . وقد مر بنا أن الزبيدي قد صرح بنقله مادة كتاب شيخه كاملة في ثنايا كتابه ومع ذلك لم يتحرج من نقده والرد عليه في المواضيع التي ظن أنه قسى فيها على الفيروزابادي .

أما الباب الخامس والأخير فقد جعل مادته في فصلين الفصل الأول قيمة التاج وأثره في الدراسات اللغوية ، والفصل الثاني ما يؤخذ على التاج ، وهذا الفصل مهم جدا وقد ظهرت فيه شخصية المؤلف د. شلاش في تتبع المآخذ التي أخذت على التاج وصاحبه كالمآخذ المنهجية ، وبعض هذه المآخذ تشبه مآخذ الزبيدي على صاحب القاموس كوضعه الألفاظ في غير مواضعها والتقصير في عزو الأقوال إلى أصحابها والمبالغة في الاختصار ثم المآخذ العلمية وفي هذه المآخذ تظهر شخصية الباحث أيضا وجهوده في تتبع القضايا اللغوية وما بدا له من أوهام الزبيدي وقد اعتمد في بيانها على بحوث قيمة خصت التاج بالدراسة ونبهت إلى بعض الجوانب اللغوية أو المآخذ والأوهام التي وقع فيها مثل ما كتبه الأستاذ حمد الجاسر في مجلة العرب السنة الخامسة 1971 الجزء الخامس وما كتبه محققو التاج في طبعة الكويت وتنبيهات المرحوم الدكتور مصطفى جواد على مواضع من أوهام الزبيدي .

كما بين المؤلف المواضع التي غلط فيها الزبيدي في ايراد أسماء الكتب أو الأخطاء الصرفية واللغوية أو الأخطاء التأريخية والجغرافية .

وبعد أن ذكر هذه الأخطاء والمآخذ لم ينس المؤلف أن يقف من الزبيدي موقفا ايجابيا فيعرض دفاعا عن الزبيدي خاصة بشأن ما كتبه أحمد فارس الشدياق في بحثه الجاسوس على القاموس حيث بين د. هاشم شلاش تلك المآخذ وما فيها من تعسف أحيانا إذ ليس كل ما يقال يكتب ويؤخذ على علاته ، والحق أحق أن يتبع كما يقول المؤلف .

هذه هي أهم الموضوعات التي عالجها الدكتور هاشم شلاش في كتابه ، وهي موضوعات مهمة تستهوي كل من علقت نفسه بدراسة اللغة العربية وتتبع جهود العلماء في تسجيل مفرداتها كما أنها تبين جهود عَلَم من أعلام العربية وهو الزبيدي الذي ترك لنا كتابه تاج العروس معلمة شامخة بين المعاجم العربية ويكفي أن نختم عرضنا لهذا الكتاب برأي الدكتور حسين نصار وهو الأستاذ المعروف الذي يعتبر أول من كتب في تاريخ المعاجم العربية حيث قال (والأمر الجلي أن أي باحث قرأ تاج العروس على الرغم من ضخامته قراءة شاملة وواعية مكنته من تحليله غاية في الدقة والتفصيل ومن تصويره تصويرا غاية في الاحاطة ، ويسرت له التقاط المعلومات ذات الفائدة الكبيرة عن الرجل وكتابه ...) .

في الاسماء المؤنثة لابن الحاجب

إحسان جعفر
(سورية)

الأسماء المعربة والصفات (المشتقة) المؤنثة في اللغة العربية تُعرف من حملها لإحدَى علامات التأنيث ، وهي التاء كشجرة ، والألف المقصورة كالشَّعْرى ، والألف الممدودة كصحراء ، ومن السهل تمييزها كشمس ، ونار ، ورأس ، وبطن ، وطريق . بعضها يعد مذكراً ، وبعضها مؤنثاً ، وبعضها يجوز فيه الوجهان : التذكير والتأنيث ؛ فكلّ من البطن والرأس والفم والباب — مثلاً — مذكر . وكلّ من العين والأذن والدار والشمس — مثلاً — مؤنث . وكلّ من السبيل والطريق والصراط والسِّكّ يجوز تذكيره وتأنيثه . والواقع أنّ تذكير هذه الألفاظ وتأنيثها لا يمتّ إلى المنطق بصلة ، وانّ الخيال وحده قد خلع على بعض الأشياء الجامدة سمات الأشخاص ، فأنّث بعضها ، وذكّر بعضها الآخر تبعاً لتصوره كلا منها ، ومن هنا كان اختلاف لغة الحجاز ، ولغة تميم في تذكير بعض الأسماء وتأنيثها ، فعلى حين يقول أهل الحجاز : هي التمر ، وهي البر ، وهي الشعير ، وهي الذهب ، وهي البسر ، تذكّر تميم هذه الألفاظ ...

ونحن نستطيع بمثل هذا التعليل أن نفهم تقسيم المؤنث إلى حقيقي ومجازي ، وعليه فتُقدر تاء التأنيث في بعض الأسماء ، فإن كان الاسم لمن تعقل كان التأنيث حقيقياً كدعد وزينب ، وإن لم يكن كذلك كان مجازياً كشمس وأُذُن ، قال ابن مالك :

* وفي أسام قدروا التا كالكتف *

ويستدلّ على التأنيث المجازي بضمير المؤنث ، أو إشارته ، أو لحوق التاء بفعله مثل هذه الشمس رأيتها طلعت ، أو ظهور التاء في تصغيره كأُذَيْنة ، أو حذفها من اسم عدده كأربع آذان ، والمؤنثات المجازية ألفاظ محصورة سُمعت عن العرب ، فيُقتصر عليها ، ويمكن الرجوع بشأنها إلى كتب المذكر والمؤنث مثل :

1) كتاب المذكر والمؤنث للفراء (المطبعة العلمية بحلب سنة 1345هـ)

2) كتاب المذكر والمؤنث للمبرد (تحقيق د. رمضان عبد التواب ، مطبعة دار الكتب بمصر 1970م) .

3) البلغة في الفرق بين المؤنث والمذكر لأبي البركات ابن الأنباري ، (تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ، مطبعة دار الكتب بمصر 1970) .

4) رسالة في المؤنثات السماعية لنور الدين بن نعمة الله الحسيني (ضمن كتاب البلغة في شذور اللغة ، نشر هنر وشيخو ، بيروت 1914)

وقد نظم ابن الحاجب[1] المؤنثات السماعية المشهورة في قصيدة أثبتها فيما يلي نقلاً عن مجموع خطي وجدتها فيه ، وإنّما أوردُها دحضاً لمن زعم[2] أن في لغتنا مئات ومئات من أسماء الجمادات لا تعرف أمذكر هي أم مؤنث ؟؟! ومن ثَمَّ دعا إلى أن نعفي الناس من تخطئتهم عندما يخالفون اعتبارات التذكير والتأنيث على النحو الذي تسير عليه اللغة العربية .

قال ابن الحاجب (من البحر الكامل) :

نَفْسي الفداء لِسائلٍ وافاني
بمسائلٍ فاحتْ كروضِ جنانِ
أسماءُ تأنيثٍ بغيرِ علامةٍ
هي يا فتىً في عُرفهم ضَرْبانِ
قدْ كان منها ما يُؤنثُ ثمَّ ما
خُيِّرتَ فيه لاختلاف معانِ
أمَّا الذي لابُدَّ من تأنيثهِ
ستُّون شبه العَيْن[3] والأُذُنانِ
والنفسُ ثمَّ الدّار ثم الدّلو من
أعدادها والسِّن[4] والكتِفانِ
وجَهَنَّمُ ثمَّ السَّعير[5] وعقْربٌ
والأرضُ ثُمَّ الآست[6] والعضدانِ
ثم الجحيمُ[7] ونارُها ثم العصا
والرّيحُ[8] منها واللظَى وَيَدَانِ
والغُولُ والفِرْدَوسُ والفُلْكُ التي
في البحرِ ، وهي في القرآنِ
وعَروضُ[9] شعرٍ والذِّراعُ وثعلبٌ
والسِّلْحُ ثم الفأسُ والوركانِ
والقوسُ ثم المنجنيقُ وأرنبٌ
والخَمرُ ثم البِئْرُ والفخذانِ
وكذاكَ في ذَهَبٍ وفِهْرٍ[10] حكمُهم
أبداً ، وفي ضَرَبٍ[11] بكلِّ مكانِ

---

(1) ابن الحاجب : هو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر المتوفي سنة 646هـ ، ولد بصعيد مصر سنة 570هـ ، ونشأ بالقاهرة ، له مصنفات كثيرة وجاءت شهرته بما صنفه في النحو ، وأهم مصنفاته فيه الكافية ، والشافية ، وهما مطبوعتان بشرح الرضي ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة من أماليه النحوية في أكثر من ستمائة وخمسين صفحة . ولابن الحاجب آراء كثيرة اتفق فيها مع بعض النحاة ، وأخرى خالف فيها جمهورهم .

(2) انظر : المذكر والمؤنث مجازياً «اقتراح» بقلم محمد خليفة التونسي ، مجلة العربي ، العدد 268 ، الصفحة 134 .

(3) العين : مؤنث ، سواء أكانت بمعنَى الباصرة أم كانت لعين الماء ، وللعين في اللغة العربية (48) معنى .

(4) من الفم ، وكذا السن بمعنَى العمر ، لأنها بمعنَى المدة ، يقال : كبرت سني ، والأسنان كلها إناث إلاَّ الأضراس والأنياب فإنها ذكران .

(5) السعير : النار ، قال تعالى : «وسيصلون سعيرا» .

(6) النحل : أنثَى ، قال عز وجل : «وأوحَى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا» .

(7) الجحيم : النار الشديدة التأجج قال جل ثناؤه : «فإن الجحيم هي المأوَى» وقال : «وإذا الجحيم سُعِّرت» ، والكتّاب اليوم يذكرون الجحيم ، وهو خطأ .

(8) جميع أسماء الرياح مؤنثات مجازية ماعدا الاعصار فذكر .

(9) عروض الشعر وغيره أنثَى كما قال الشاعر :

ومازال سوطي في قرابي ومحجني ومازلت منهم في عروض أذودها

والعروض هنا الناقة ، وللعروض معان كثيرة منها : الطريق ، وميزان الشعر ، والجدي ، والتيس ، والسحاب ، والطعام ...

(10) الفِهْر : الحجر .

(11) الضرب : العسل الأبيض يقال : الضَّرَب البيضاء .

والـعـينُ لـلـينبوعِ والـدِّرعُ التي
هي من حـديـدٍ قـطّ والقدمان
وكذاك في كَبِدٍ، وفي كَرِش، وفي
سَقَرٍ[13]، ومنها الحربُ والنّعلانِ
وكذاك في فرسٍ، وفي كأسٍ وفي
أفعَى، ومنها الشّمسُ والعِقبانِ
والعنكبوتُ[13] تحوكُ والموسَى معاً
ثم اليمينُ، وإصْبَع[14] الإنسانِ
والـرّجـل منهـا والسّـراويـلُ التي
في الرِّجل كانتْ زينة العريانِ
وكذا الشّمال من الإناسِ، ومثلها
ضَـبُـع، ومنهـا الـكـفّ والسّـاقـانِ
أمّـا الذي قد كُنْتَ فيه مُخَيَّراً
هُوَ كَانَ سَبْعَةَ عَشَرَ في التبيانِ
السِّلْمُ[15] ثم المِسْكُ ثم القِدْرُ[16] في
لُغَةٍ، ومِثْل الحال[17] كلّ أوان
والـلـيثُ منهـا والـطـريـق وكالسُّرى
ويُـقـالُ في عُنُقٍ كذا ولسانِ[18]
وكذاكَ أسْماء الليالي والضُّحَى[19]
وكـذا السِّلاح لِـفَـاتكٍ طـعـانِ
والحِكْمُ هذا في القَفَا أبَداً وفي
رَجِـمٍ وفي السِّـكين والسِّـلـطـانِ
وَقَصيـدتي تـبـقَى، وإنّي اكتسي
ثـوبَ الـفـنـاء، وكـلُّ شيءٍ فانِ

وبهذا نكون قد انفردنا لأول مرة بنشر الرواية الصحيحة ، الموثقة ، لقصيدة ابن الحاجب الموشّحة بالمؤنثات السّماعية ، وكان لويس شيخو مدير مجلة المشرق قد نشرها بدون اعتناء سنة 1908 في بيروت ، وأعاد طبعها في كتاب «البلغة في شذور اللغة» سنة 1914 ، بيد أنّ طبعته السّقيمة جاءت مشحونة بالتحريفات ، ومليئة بالأخطاء الشنيعة ، فضلاً عن تصحيف معظم ألفاظها ،

---

(12) هي جهنم ، معرفة ممنوعة من الصرف قال تعالى : «وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر» .

(13) العنكبوت : مؤنثة واحدة كقول الله عز وجل : «كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً» .

(14) الأصابع : إناث كلهن إلا الإبهام فإن العرب على تأنيثها إلا بني أسد أو بعضهم فإنهم يقولون : هذا إبهام ، والتأنيث أجود .

(15) بمعنى الصلح .

(16) القِدر : أنثى ، ويذكرها بعض قيس .

(17) الحال : أنثى ، وأهل الحجاز يذكرونها ، وربما أدخلوا فيها الهاء قال الشاعر :

على حالةٍ لو أن في القوم حاتماً على جودِهِ لضنَّ بـالماء حـاتم

(18) اللسان يذكر ، وربما أنث وإذا قصدوا باللسان قصد الرسالة أو القصيدة . (أو اللغة) قال الشاعر :

لسـان المرء تهديها إلـيـنـا وجِئْتَ وما حسبتُك أن تخينا

ويروى لسان السوء ، وقال الآخر :

أتـتني لسـان بني عـامـر أحـاديثهـا بـعـد قولِ نُـكُـر

وذكّرها الحطيئة فقال :

نـدمتُ على لسـان كـان مني فليت بأنه في جوف عِكْم

وأما اللسان بعينه فلم يسمع من العرب إلّا مذكراً ، ومَنْ جَمع اللسان المذكر قال في جمعه «ألسنة» وجمعه الكثير «لُسُن» ، ومن أنّث فيجمع على «ألسن» .

(19) الضحَى : أنثى يقال ارتفعت الضحَى ، وتصغيرها ضُحَيًّا بغير الهاء كأنهم كرهوا أن يشبه تصغيرها تصغير ضَحْوة ، قال الشاعر :

يـفـعـتُ خُـلَـيْقاً بعدما اشتدت الضحَى بمرتـقـبٍ عـالي الـنّـشـاز رفـيـع

ومعنَى يفعت ارتفعت و(خليقا) اسم جبل .

ولا أدري كيف أجاز لنفسه أن ينشرها بتلك التشويهات فغدت عنده أسماء عديدة مذكرة لا يجوز تأنيثها مؤنثة ، والعكس أيضاً ، ومما يؤسف أنّ أحد الدارسين ، فهو عصام نور الدين نقل قصيدة ابن الحاجب المذكورة من كتاب شيخو ، وضمنها كتابه «أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب» الصادر حديثاً في بيروت ، وهو عبارة عن رسالة دكتوراه ، ويلوح أنه لم ينتبه إلى الأخطاء الواقعة فيها ، ونأمل منه تصحيحها في طبعة الكتاب القادمة .

وكما رأيتَ فإنَّ الأسماء المؤنثةَ مجازيّاً المتداولة في عربيتنا اليوم التي وشح ابن الحاجب بها قصيدته لا تعدّ أكثر من ستين اسماً يزاد عليها أسماء البلدان ، وحروف الهجاء ، والحروف نحو : في وعلى ... وتسويغ إجازة تذكيرها وتأنيثها مردود ، وانّ الاقتراح الذي طالعناه مؤخراً بهذا الشأن ، يسقط فيما إذا حُصرت هذه الأسماء ، وتمتْ معرفتها وضُربَ صفحاً عمَّا اختُلِفَ فيه ، وجاء بلهجاتٍ ضعيفةٍ لا يُعتدّ بها ، أو كان من متروك الكلام ومهجوره .

المراجع

1) المذكر والمؤنث للفراء (حلب 1345هـ) .
2) المذكر والمؤنث للمبرد (مصر 1970) .
3) مختصر الوجوه في اللغة للخوارزمي المطبعة العلمية بحلب سنة 1345هـ .
4) أزهار الفصحَى في دقائق اللغة لعباس أبو السعود ، دار المعارف بمصر 1970 .
5) مجلة العربي ، العدد 268 .
6) دراسات في فقه اللغة ، د. صبحي الصالح .
7) المدارس النحوية لشوقي ضيف .
8) كتاب خط قديم .

التراث اللغوي العربي والدراسات اللغوية الحديثة

محمد ياسر سليمان

ـ قسم علم اللغة جامعة سانت أندروس ـ اسكتلندا

مقدمـة :

ان التراث اللغوي العربي، كما وضعه اللغويون العرب القدامى، بحاجة ماسة الى دراسة جادة، من وجهة النظر اللغوية الحديثة، وذلك من أجل تحديد الأسس التي اعتمد عليها أولئك اللغويون، والتي مازال يعتمد عليها من يحذو حذوهم من اللغويين العرب في عصرنا الحاضر، للوصول الى نتائجهم فيما يتعلق بطبيعة اللغة العربية كنظام لغوي، سواء كانت تلك الأسس فلسفية، باوسع معنى لهذا التعبير، أم انها كانت أسسا لغوية بحتة. ان هذه الدعوة ليست جديدة في الحياة اللغوية والفكرية العربية المعاصرة. لكن ردود الفعل التي افرزتها تلك الدعوة تضاربت وتباينت في كثير من الأحيان فمن رافض المشاركة باي نشاط من هذا النوع، انطلاقا من مبدأ ان ما أتى به اجدادنا القدامى من اللغويين العرب هو كامل وصحيح، لا يقبل النقد في صلبه، ولا يستدعي المراجعة في اصوله، وبين محاولة أخرى لرفض هذا التراث والتخلص منه باعتبار انه قديم عقيم، لا قيمة له ولا فيه. وبين هذين الموقفين المتعارضين، يطالعنا موقف اصحاب الوسط، والذي يدعو القائلون به الى النظر في اصول تراثنا اللغوي، نظرة فاحصة مدققة، تهدف الى بيان نقاط القوة أو الضعف فيه، أو كليهما معا. وهم يستندون في اجراء مثل هذه المحاكمة لتراثنا اللغوى على الدراسات اللغوية الحديثة كما تُجْرى في جامعات الغرب ومؤسساته الأكاديمية الأخرى، باعتبارها في نظرهم تمثل ذروة ما توصل اللغويون المحدثون اليه من استنتاجات تتعلق بطبيعة اللغة الانسانية، ومميزات اللغات الانسانية وخصائصها كل على انفراد. ان الأغلبية العظمى من اصحاب هذا الموقف ودعاته، تتألف من لغويين عرب درسوا النظريات اللغوية الحديثة في جامعات الغرب ومؤسساته العلمية.

ان رفض الجديد لأنه غير قديم، وقبول القديم لأنه تراثي وقديم، وان رفض القديم لأنه غير جديد، وقبول الجديد لأنه جديد غير تراثي كانا، ولازالا، آفة خطيرة من آفات الحياة الفكرية واللغوية العربية المعاصرة. إنّ هذين الموقفين رغم تعارضهما الفكري التام، فانهما يشكلان مظهرين لاتجاه واحد خاطيء، الا وهو اتجاه التعصب في حياتنا الفكرية، سواء كان هذا التعصب لتراثنا الفكري أو لفكر الغرب ونظرياته.

اما مجموعة الوسط، والتي أوّد ان اركز على موقفها من تراثنا اللغوي في هذه المقالة، فان آفتها من نوع لا يختلف كثيرا في صلبه عن آفة أصحاب كل من الموقفين آنفي الذكر. ان آفة اصحاب هذا الموقف ليست هي رفض القديم، فهذا هو الذي يهدفون الى محاكمته، من أجل بيان نقاط القوة أو الضعف فيه، بل انه قبول الحديث واعتباره، الى حد كبير، المعيار الأول والنهائي للوصول الى نتائجهم، دون محاكمة لهذا الحديث بطريقة نقدية فاحصة، ترمي الى بيان نقاط القوة فيه، من أجل عزلها للاستناد عليها كقاعدة محكمة في معالجة تراثنا اللغوي. فنحن نرى ان هذه المجموعة كثيرا ما تميل الى اعتبار كل ما اتفق من تراثنا اللغوي مع آخر الأفكار اللغوية الحديثة، كتلك التي تشتمل عليها الأشكال المختلفة لنظرية تشومسكي *(Chomsky)* مثلا، هي نقاط قوة في هذا التراث، وكل ما خالف هذه الأفكار من تراثنا اللغوي نقاط ضعف فيه. ان هذه المجموعة تغفل بموقفها هذا مُسلمة علمية على غاية من الأهمية الا وهي ان هذه الدراسات، رغم حداثتها، بحاجة الى البحث والنقاش والمحاكمة وهي لذلك لا تصلح كأداة جاهزة وفورية عند محاولتنا تقييم تراثنا اللغوي.

ان ما سبق طرحه حتى الآن، فيما يتعلق بموقف مجموعة الوسط، يشير الى مقولة هامة يمكن تلخيصها بما يلي : ان محاولة محاكمة وتقييم تراثنا اللغوي العربي، من وجهة النظر اللغوية الحديثة، يجب ان ترتكز على اسس سليمة، قائمة على نظرة مُدَقَّقَة لاصول الدراسات اللغوية الحديثة، سواء كانت تلك الأصول فلسفية منطقية، أمْ لغوية بحتة. ان غياب هذه النظرة المنهجية من أيّة محاولة تهدف الى استكناه نقاط القوة أو الضعف، أو كليهما معا في تقييم التراث اللغوي العربي تؤدي، لامحالة، الى دراسات عقيمة لا فائدة علمية منها.

أما الهدف من هذه المقالة فيمكن تلخيصه في نقطتين اثنتين : الأولى تقصد الى اثبات أن كثيرا من النظريات اللغوية الحديثة لا تعطي اصولها الفلسفية العلمية حقها من البحث والتمحيص فتأتي هذه النظريات، رغم شيوعها مهزوزة الأصول. ان هذا، في نظري، يدعو الى الحذر من اعتبار هذه النظريات مسلمات وحقائق لا ريب فيها، عند معالجة تراثنا اللغوي. ونظرا لأنه لا يمكن معالجة كل هذه النظريات، أو حتى واحدة منها، معالجة تامة هنا، فاني سوف اركز على جانب بسيط، لكنه هام، من نظرية تشومسكي *(Chomsky)* كمثال على هذه النقطة. أما سبب تركيزي على نظرية تشومسكي دون غيرها فانه نابع من كون هذه النظرية أكثر النظريات اللغوية شيوعا في الغرب، ونظرا لأن أكثر اعضاء مجموعة الوسط من اللغويين العرب يعتمدون عليها في دراساتهم النقدية لتراثنا اللغوي. أما النقطة الثانية فانها تهدف إلى اعطاء مثال مقتضب من مقالة عربية حديثة، من أجل ايضاح مشكلة مجموعة الوسط، وتمثيل موقفهم، كما تمت الاشارة الى هذا آنفا.

الا انه قبل أن أخوض في بحث هاتين النقطتين، فاني سوف احاول أن اعرض بصورة سريعة لسمة هامة من سمات النظريات العلمية، بغض النظر عن المجال العلمي لتلك النظريات، أو موضوع بحثها، استنادا إلى نظرية فيلسوف العلم كارل بوبر *(Popper)*.

احدى سمات النظريات العلمية :

ان احدى المقولات الاساسية التي تشتمل عليها نظرية بوبر في طبيعة العلم تنص على وجود فرق جوهري بين النظريات العلمية، من ناحية، والنظريات غير العلمية، أو الميتافيزيقية، من ناحية أخرى. اما الدعامة التي ترتكز عليها هذه المقولة فهي انه بينما يمكن اختبار صحة ما تقول به النظريات العلمية من خلال مواجهتها، إما مباشرة أو بطريق غير مباشرة، بارضية الواقع الطبيعي أو الانساني الذي تشير اليه، أو تحاول وصفه وتعليله، فان هذا لا يمكن تحقيقه في مجال النظريات غير العلمية أو الميتافيزيقية. ان الاهتمام في اختبار صحة نظرية علمية ما، بناء على اسلوب بوبر هذا، لا ينصب على محاولة اثبات صحة هذه النظرية، بل على محاولة اكتشاف خطئها واثباته. فان تم ذلك فان صحة هذه النظرية تكون قد نُفِيَتْ، اما ان لم يتم ذلك فانه لا يجوز القول بثبوت صحة هذه النظرية، نظرا لانه لا يمكن من وجهة النظر المنطقية، استبعاد احتمال اثبات خطئها في المستقبل القريب أو البعيد.

ان هذه المعالجة لطبيعة النظريات العلمية تدعمها الكثير من الادلة العلمية المستقاة من تاريخ تطور العلوم. فعلى سبيل المثال لا الحصر، فانه رغم فشل جميع المحاولات لاثبات خطأ نظرية نيوتن، طوال فترة شيوعها، فقد تَمَّ في النهاية اثبات خطئها على يد اينشتاين في مطلع هذا القرن. ان هذه الواقعة الهامة، في تاريخ تطور العلوم الطبيعية، تشير بكل وضوح الى حقيقة انه لا يجوز القول، من وجهة النظر المنطقية، بصحة نظرية علمية ما انطلاقا من واقع ان كل المحاولات التي تمت لاثبات خطئها قد باءت بالفشل، وعليه، فلا يمكن نفي احتمال ثبوت خطأ هذه النظرية في زمن ما في المستقبل.

ان ما سبق ذكره اعلاه بخصوص طبيعة النظريات العلمية، استنادا الى نظرية بوبر في طبيعة المعرفة العلمية، سواء كانت هذه المعرفة في مجال العلوم الطبيعية أم العلوم الانسانية، يدل على انه لايصح، لأسباب منطقية وتاريخية، اعتبار اية نظرية علمية، مهما بلغت درجة شيوعها، أو ثقتنا بها، كاداة أو وسيلة للحصول على المعرفة العلمية نظرية مسلمة لا يجوز الشك فيها، وحقيقة لا غبار عليها. كما ونستدل مما ورد ذكره اعلاه إلى ان النظريات غير العلمية، أو الميتافيزيقية كما يسميها بوبر، تحتوي على افكار وآراء لا يمكن اختبار صحتها عن طريق محاولة اثبات ما تشير إليه، أو تتحدث عنه، وذلك بمواجهتها بعالم الواقع الطبيعي أو الانساني.

نظرية تشومسكي

تعد نظرية تشومسكي في القواعد التحويلية التوليدية من أكثر النظريات اللغوية المعاصرة أهمية وأعظمها شيوعا. ومن أهم الأمور التي تدعو اليها هذه النظرية هو ضرورة التفريق بين اللغة الانسانية، من جهة، واللغات الانسانية كل على انفراد، كاللغة العربية أو الانجليزية مثلا، من جهة أخرى. اما اللغة الانسانية في رأي أصحاب هذه النظرية فانها تشكل مجموعة اللغويات العمومية *(Universals Linguistic)* التي تُعَرِّف كل لغة انسانية كلغة انسانية. أو بعبارة أخرى انها مجموعة المقومات اللغوية التي تتواجد في كل لغة انسانية مُحَدِّدَة إياها كلغة انسانية، لا، مثلا، كنظام اتصال ذو طبيعة أخرى. أما مفهوم اصحاب هذه النظرية لطبيعة

اللغات الانسانية منفردة فيمكن تمثيله بالمفهوم الذي يتحتم اعطاؤه للغة العربية بناء على نظريتهم هذه. فاللغة العربية، بناء على هذه النظرية، هي مجموعة الجمل التي تنضوى تحت هذه اللغة، والتي يتم توليدها من مجموعة محدودة يسميها تشومسكي بالتراكيب العميقة *(Surface Structures)*، بواسطة استعمال قواعد لغوية مختلفة النوع ومرتبة ترتيبا معينا. ونظرا للاساس النفسي الذي تقوم عليه نظرية تشومسكي فانه لا مناص من القول بان اللغة العربية، بالمفهوم الذي تم اثباته اعلاه، هي ظاهرة نفسية عقلية لها وجودها في دماغ كل من يتحدث بها كلغة أم. لقد عبر كاتز *(Katz)*، وهو احد اتباع تشومسكي، عن هذه النظرة الى طبيعة اللغة الانسانية بصورة واضحة في مقالة له نشرها في المجلد رقم (40) من مجلة **اللغة** *(Language)* الصادرة سنة (1964).

يقول كاتز (ص 133) في هذه المقالة :

«The linguistic description and the procedures of sentence production and recognition must correspond to independent mechanisms in the brain. Componential distinctions between the syntactic, phonological, and semantic components must rest on relevant differences between three neural submechanisms of the mechanism which stores the linguistic description. The rules of each component must have their psychological reality in the input-output operations of the computing machinery of this mechanism. The ordering of rules within a component must, contrary to the claims of Bloomfield and many others, have its psychological reality in those features of the computing machinery which group such input-output operations and make the performance operations in one group a pre-condition for those in another to be performed».

ان ما اريد التركيز عليه بما سيعالجه البحث ادناه هو المكانة العلمية، أو عدمها على وجه أصح، للمفهوم الذي اقترحه تشومسكي وأتباعه بخصوص ماهية اللغة الانسانية وطبيعتها كظاهرة نفسية مركزها الدماغ، معتمدا في ذلك على نظرية بوبر في طبيعة العلم.

من المسلّم به انه لا يمكن أن نختبر، بصورة مباشرة، صحة التركيب البنيوي للغة انسانية ما، كما يكون هذا التركيب بناء على نظرية تشومسكي، نظرا لانه لا تتوافر لدينا الوسائل والأساليب التي يمكننا بواسطتها أن نراقب ما يجري في ادمغة الناطقين بهذه اللغة كلغة أم، اثناء قيامهم بنشاطاتهم اللغوية، دون اتلافها. فمثلا نحن لا نستطيع ان نفتح جماجم اصحاب لغة من اللغات من أجل مراقبة ما يدور في ادمغتهم اثناء نشاطاتهم اللغوية دون ان ندمر أو نتلف هذه الأدمغة التي نود مراقبتها. كما اننا لا نستطيع أن نستعمل اساليب الأشعة القوية، كوسيلة لاختبار صحة تركيب بنيوي مركزه الدماغ، دون اتلاف هذا الدماغ اثناء عمليتنا هذه.

ونتيجة لذلك، فان أصحاب المدرسة التحويلية التوليدية، وغيرهم من اللغويين الذين ينظرون الى اللغات الانسانية كظواهر نفسية، يتّبعون اسلوب النَمْذَجَة *(Modelling)* عند محاولتهم اختبار صحة ما تقول به نظرياتهم. وفحوى هذا الأسلوب هو بناء نموذج لغوي، يرمي الى توليد كل الجمل التي هي جمل نحوية صحيحة في لغة من اللغات الانسانية. فان نجح هذا النموذج في القيام بهذه المهمة ـــ أي في توليد كل الجمل النحوية في اللغة التي هو نموذجا لها ـــ استنتج اصحاب المدرسة التحويلية، ومن شاكلهم من علماء اللغة المعاصرين، بان التركيب اللغوي لنموذجهم يقابل تركيب اللغة الانسانية المعنية، كما هي ظاهرة نفسية بالدماغ. وقد يذهب بعضهم الى ابعد من هذا، فيقولون بتطابق التركيب اللغوي لنموذجهم ان يولد كل الجمل التي هي جملا نحوية صحيحة في اللغة التي يرمي هذا النموذج الى ان يكون نموذجا لها، فان اصحاب المدرسة التحويلية، ومن شاكلهم من علماء اللغة المعاصرين الذين ينظرون الى اللغات الانسانية كظواهر نفسية، يرفضون هذا النموذج باعتباره نموذجا خاطئا.

ونظرا لأن معرفة افراد مجموعة لغوية ما بلغتهم لا يمكن أن تكون متساوية أو متكافئة، اضافة الى ان هناك فرقا بين المعرفة اللغوية عند كل فرد من هؤلاء الأفراد، والتي هي كاملة متكاملة، ونشاطه اللغوي الملىء بالتردد وزلات اللسان وانصاف الجمل، فان تشومسكي وأنصاره يقترحون مفهوما اسموه «المتحدث المثالي».

والمفروض أن هذا المتحدث المثالي يعرف لغته معرفة تامة كاملة، وهو ليس بعرضة للتردد، وزلات اللسان، وانتاج انصاف الجمل، مما نلاحظه في النشاط اللغوي للمتحدث العادي. ومعنى هذا كله، هو ان محاولة اكتشاف مقدرة النموذج اللغوي الذي يقترحه عالم اللغة على توليد كل الجمل النحوية الصحيحة في لغة ما، ولا شيء غيرها، تتم عن طريق مواجهة هذه الجمل بالمعرفة اللغوية التي يمتلكها «المتحدث المثالي» بهذه اللغة. فان اتفقت جميعها مع معرفته اللغوية، قيل بان التركيب اللغوي الذي يتضمنه النموذج اللغوي لهذه اللغة يقابل، أو لعله يصور، التركيب البنيوي الذي يمتلكه المتحدث المثالي بهذه اللغة في دماغه. أما اذا كانت النتيجة معاكسة لذلك، فان هذا كاف للحكم بخطأ هذا النموذج، نظرا لعدم قدرته على مقابلة أو تصوير التركيب البنيوي الذي يُكَوِّن معرفة المتحدث المثالي اللغوية.

ان ما يهمنا هنا هو المرتبة العلمية للاستدلال القائل بان التركيب البنيوي للنموذج اللغوي يقابل أو يصور التركيب البنيوي

للغة التي يرمي هذا النموذج الى ان يكون نموذجا لها، اذا كانت الجمل التي يستطيع أن يولدها هذا النموذج تشكل مجموعة الجمل النحوية الصحيحة في اللغة المعنية، استنادا الى المعرفة اللغوية عند المتحدث المثالي، ولا شيء غيرها. ان هذا الاستدلال يشكل احد الأركان الأساسية التي ترتكز عليها نظرية تشومسكي اللغوية. فان نجحت محاولة اثبات ان هذا الركن من أركان نظرية تشومسكي لا يقوم على ارضية علمية ومنطقية يمكن الركون اليها، فاننا نكون قد قدمنا برهانا قاطعا على أنها نظرية ضعيفة الأساس في هذا الجانب من جوانبها على الأقل، وبالتالي فانه لايجوز اعتبارها مسلمة وحقيقة لاريب فيها في محاولة معالجة وتقييم تراثنا اللغوي من وجهة نظر لغوية حديثة. ومن اجل اثبات ان هذا الاستدلال لا يقوم على أرضية علمية محكمة، من وجهة النظر التي يدعو اليها بوبر لطبيعة العلم، فاني سوف اركز على مفهوم «المتحدث المثالي» الذي تُعْتَبَرُ معرفته اللغوية المرجع النهائي في الحكم على صحة أو خطا نموذج لغوي ما. فهذا المتحدث ليس متحدثا بالمعنى العادي أو التقليدي لهذه الكلمة، بل هو **مفهوم لغوي بحت من صنع اللغوي نفسه.** وانطلاقا من هذا فإن المتحدث المثالي لا يمكنه امتلاك دماغ يَخْتَزِنُ فيه معرفته اللغوية، كما لا يمكنه اكتساب معرفة لغوية مستقلة عن المعرفة التي يَفْتَرِضُ اللغوي انه يتملكها. وبالتالي فليس ممكنا اختبار صحة النموذج اللغوي الذي يَقْتَرِحه عالم اللغة بالشكل الذي تم شرحه في الجزء الثاني من هذه المقالة. وانطلاقا من ذلك فلا يمكن الوصول الى صحة الاستدلال الذي نحن بصدد معالجته ؛ ولذا فان هذا الاستدلال لا أرضية علمية له من وجهة نظر بوبر لطبيعة العلم والمعرفة العلمية. كما ان هذا الاستدلال لا يقوم على أرضية منطقية صحيحة ومحكمة. فالقول بان التركيب البنيوي الذي يتضمنه النموذج اللغوي يقابل أو يصور التركيب البنيوي للغة التي يرمي هذ النموذج الى ان يكون نموذجا لها، اذا استطاع هذا النموذج ان يولد كل الجمل التي هي جمل صحيحة نحويا في هذه اللغة، ولا شيء غيرها، لا يمكن قبوله من وجهة نظر علم المنطق لانه يناقض قاعدة منطقية مؤداها عدم جواز القول بصحة السابق من صحة توابعه. ان تبرير هذه القاعدة نابع من حقيقة انه يجوز من وجهة نظر علم المنطق القيام باستقراء مقولات صحيحة من مقدمات خاطئة، ونظرا لذلك فانه لا يجوز ان نستدل على صحة المقدمات من صحة المقولات التي تؤدي اليها هذه المقولات بطريقة منطقية. ففي المثال التالي :

كل العرب فنلنديين
كل الفنلنديين يتكلمون اللغة العربية
كل العرب يتكلمون اللغة العربية

تم استقراء المقولة الصحيحة «كل العرب يتكلمون اللغة العربية» من مقدمات خاطئة في ارض الواقع. وبالتالي فانه يجوز القول بصحة تلك المقدمات لأنها لا تؤدي الى مقولة، أو نتيجة صحيحة واقعيا. وبناء على ذلك فيمكننا القول بان الاستدلال على صحة التركيب البنيوي للنموذج اللغوي استنادا الى صحة نتائجه، أي الجمل التي يولدها، لا يقوم على أرضية منطقية محكمة، بل هو في الحقيقة، يُخالف احدى قواعد التفكير المنطقي، وبالتالي التفكير العلمي الذي يشكل علم المنطق احد دعائمه الاساسية.

يتضح مما تم ذكره اعلاه ان المفهوم الذي تتقدم به نظرية تشومسكي لطبيعة وماهية اللغات الانسانية لا يقوم على اساس علمي ومنطقي مقبول. واذا ما توخينا الدقة في التعبير، فان هذا المفهوم ليس الا مفهوما ميتافيزيقيا، بالمعنى الذي يحدده بوبر لهذا المصطلح. غير ان هذا لا يعني بان نظرية تشومسكي هي باكملها نظرية ميتافيزيقية. فهذه النظرية تحتوي على بعض العناصر التي يمكن اختبار صحتها بالطريقة التي يدعو اليها بوبر. كما ان هذه النظرية قد اثارت مسائل جوهرية تتعلق بطبيعة اللغة الانسانية لم تُثِرْها من قبل نظريات لغوية حديثة سبقتها. الا انه رغم ذلك، واعتمادا على الاستنتاجات التي تَوَصَّلْتُ اليها اعلاه، فانه لابد من الاعتراف بان نظرية تشومسكي تبدو ضعيفة الاصول اذا ما نظرنا اليها من وجهة نظر فلسفة العلم، بما في ذلك علم المنطق. ولذا فانه ليس من الحكمة اعتبار هذه النظرية حقيقة مسلما بها عند معالجتنا لتراثنا اللغوي العربي.

مثال مقتضب

ولبيان ضرورة الوقوف وقفة فاحصة مدققة من الدراسات اللغوية الحديثة، عند بحثنا للتراث اللغوي العربي من وجهة نظر هذه الدراسات، فاني سوف اركز بصورة مقتضبة على مفهوم **الصرفيم** *(Morpheme)*، كما تم شرح هذا المفهوم في مقالة الدكتور عبد الرحمن ايوب «المفهومات الأساسية للتحليل اللغوي عند العرب»، التي تم نشرها في الجزء الأول من المجلد السادس عشر من مجلة **اللسان العربي** سنة 1978.

يتبنى المؤلف في هذه المقالة احد اشهر التعريفات لهذا المفهوم في الدراسات اللغوية الحديثة، الا وهو أن الصرفيم يشكل «أقل مجموعة من الوحدات الصوتية (التي) تؤدي معنى» (ص 18). ومثل اصحاب هذا التعريف — بلومفيلد *(Bloomfied)* واتباعه على وجه الخصوص — يقع المؤلف في خطأين اثنين. **اولهما** قوله في سياق آخر بأن «الصرفيم يتكون من صوتيمات» *(Phonemes)*. فهذا التحديد لمفهوم الصرفيم يعارض المفهوم الأول ويناقضه : فكيف يمكن لشيء يؤدي معنى أن يتكون من

صوتيمات لا معنى لها ؟ وبعبارة أخرى، اذا كان الصرفيم هو حقا أصغر الوحدات النحوية التي تؤدى معنى، فكيف يكون هذا الصرفيم وحدة لغوية تتكون من صوتيمات لا معنى لها على الاطلاق ؟

اما الخطأ الثاني فانه يتعلق بالخلط بين مفهومي «الكلمة» و«الصرفيم» كوحدات نحوية مستقلة يجب التفريق بينها دوما وباستمرار نظرا لانها تشكل اللبنات الأساسية لأجزاء مستقلة من التركيب النحوي لأية لغة من اللغات. فالكلمة تعتبر في نظر اغلبية علماء اللغة المحدثين الوحدة الأساسية في **النحو** *(Syntax)*، بالمفهوم الضيق لهذا المصطلح، أما الصرفيم فانه يعتبر الوحدة الأساسية في **الصرف** *(Morphology)*. أما الخلط الذي اشرت اليه آنفا فانه يبدو واضحا من قول المؤلف (ص 20) «ان بعض الكلمات يمكن ان تكون اساسا لتوليد كلمات أخرى. وذلك باضافة صرفيمات ذات معنى إلى الأساس، وقد تكون الصرفيمات المضافة بدورها كلمات تصلح اساسا ويمكن استعمالها مستقلة وقد لا تكون». فالقول بان بعض الصرفيمات المضافة الى الأساس لتوليد كلمات أخرى يمكن أن تكون «بدورها كلمات» يؤدي الى الخلط بين الصرفيم والكلمة، نظرا لأن هذا يجعل من الكلمات المضافة الى الاساس لتوليد كلمات أخرى نوعا من أنواع الصرفيم.

وفي تحليله للكلمة الانجليزية *(blackbird)* ــ اسم طائر «الشحرور» بالعربية ــ على أنها مكونة من الكلمتين *(black)* و*(bird)*، بالمعنى العادي لهاتين الكلمتين، يقع المؤلف في نفس التناقض الذي وقع، ويقع، فيه كثير من اللغويين المحدثين الذين يتبنون نظرة مماثلة الى هذه الكلمة وغيرها من الكلمات المشابهة، مثل *(ladybird)* ــ اسم الحشرة «أم عمرو» بالعربية.

ومصدر هذا التناقض هو أنها إذا كانت كلمة *(blackbird)* هي حقا كلمة مركبة من كلمتي *(black)* و *(bird)*، بالمفهوم العام لمصطلح الكلمة كوحدة لغوية ذات معنى مستقل بها، فانه يجب أن يكون ممكنا، من الناحيتين النظرية والوصفية، ان نستدل على معنى هذه الكلمة من معنى كل من كلمتي *(black)* و*(bird)* اللتين تكوناها بما في ذلك، بطبيعة الحال الرابطة النحوية بينهما.

ولما كان هذا ليس ممكنا، نظرا لأن *(black)* هنا لا تعني «اسود» بالضرورة، انطلاقا من واقع ان اناث هذا الجنس من الطير هي بنية اللون، وان بعض انواع هذا الجنس من الطير هي بيضاء اللون، فانه يجب ان تُعْتَبَرَ هذه الكلمة، من وجهة نظر اللغويات غير التاريخية، كلمة بسيطة، مركبة. كما انه لا يجوز بناء على ذلك ان نَعْتَبِر *(black)* في كلمة *(blackbird)* «كلمة» بالمفهوم السائد لهذا المصطلح اللغوي، اي كوحدة لغوية ذات معنى مستقل خاص بها. فالشبه بين *(black)* في كلمة *(blackbird)* وكلمة *(black)* في *(black bird)* ــ أي طائر اسود اللون بغض النظر عن الفصيلة التي ينتمي اليها ــ هو شبه يعزى الى الشكل فقط، سواء كان هذا الشكل لفظيا أو كتابيا.

خاتمة :

لقد حاولت في ما سبق من هذه المقالة ان أقدم بعض الحجج والأدلة لدعم الرأي القائل بان الدراسات اللغوية الحديثة لا تصلح كأداة جاهزة وفورية لمعالجة ومحاكمة تراثنا اللغوي العربي. فالأغلبية العظمى من هذه الدراسات ما زالت تغفل أهمية النظر إلى اصولها العلمية والمنطقية الى حد يجعلها غير جديرة بان يطلق عليها اسم «علم». فمصطلح «علم اللغة» هو في رأيي أكثر انطباقا على المنزلة التي ترنو إليها الدراسات اللغوية الحديثة منه على حال هذه الدراسات كما هي عليه الآن. وتبعا لذلك، فان استعمالنا لمصطلح «علم اللغة» في الصفحات السابقة، للاشارة إلى الدراسات اللغوية الحديثة، منبعه العرف والعادة، لا محاولة الاشارة الى خاصية العلم في هذه الدراسات.

ولعل اهمال الرجوع الى علم المنطق في الدراسات اللغوية الحديثة ما هو الّا نتيجة لردة فعل ضد نزعة لغوية قديمة كانت تهدف الى اخضاع اللغات الانسانية لدراسات منطقية لا لغوية. ان هذا يفسر سببا من اسباب اصرار اللغويين النظريين المحدثين في عصرنا هذا على ضرورة وأهمية دراسة اللغات الانسانية من وجهة نظر لغوية بحتة. الا أن هذا الاصرار يجب ان لا يُعْتَبَر مدعاة لحظر الرجوع الى علم المنطق في بناء الدراسات اللغوية. فدور المنطق هنا يختلف اختلافا جوهريا عن دوره في الدراسات اللغوية القديمة. ان دوره هنا لا يتعدى كونه اداة نستخدمها في الوصول الى دراسات لغوية لا يشوبها التناقض، أو كوسيلة نستطيع بواسطتها ان نكشف اي تناقض قد يكون كامنا في دراساتنا هذه.

المراجع

1. *Chomsky, N : **Syntactic Structures**, Juana Linguarum, N°IV, The Hague, 1957*
2. *------ : **Aspects of the Theory of Syntax**, Cambridge, Mass, 1965*
3. *Katz, J.J. : «Mentalism in Linguistics», **Language**, Vol. 40, 1964*
4. *Mulder, J.W.F. and Hervey, S.G.J. : **The Strategy of Linguistics**, Scottish Academic Press, Edinburgh, 1980*
5. *Popper, K. : **Conjectures and Refutations**, London : Routledge and Keegan Paul, 1963*
6. *------ : **The Logic of Scientific Discovery**, Hutchinson (4th ed.), 1965*
7. ايوب، عبد الرحمن : «المفهومات الأساسية للتحليل اللغوي عند العرب» **اللسان العربي**، مجلد 16، 1978

موقف ابن جنّي(*) من الضرورات الشعرية

جواد حسني عبد الرحيم

الضرورة الشعرية . ما هي ؟

في اللغة :

الضرورة من الإضطرار . والأصل ضَرَرَ . والضرر النازل الذي لابدّ منه . والاضطرار : هو الإحتياج إلى شيء وقد اضطره إليه أمر ، فهو مضطر .

والضرورة اسم لمصدر الإضطرار ، وهي كل ما تمس الحاجة أو الشدة إليه . نقول حملتني الضرورة على كذا وكذا ، وقد إضطره فلان إلى كذا وكذا . تجمع على ضرورات وضرائر ، قياساً على ركوبه وجمعها ركائب .

في الفقه :

الضرورة اسم لما يتميز به الشيء من وجوب وامتناع ، ولها مرادف آخر هو (الرخصة) والفقهاء يقولون (الضرورات تبيح المحظورات) ورسولنا الكريم يقول (إن الله يحب أن تؤتَى رخصه كما يحب أن تؤتَى عزائمه) .

في الاصطلاح :

أن يجد الشاعر نفسه في موقف تعبيري ما ، فلا يجد لنفسه غير هذا الأسلوب لأنه أصدق وسيلة للتعبير به عن أفكاره . والضرورة كما عرّفها الجمهور : هو ما وقع في الشعر مما لا يقع في النثر ، وأضاف آخرون : مما ليس للشاعر عنه مندوحة .

وعرفها آخرون بأنها : مخالفة الشاعر لمقاييس اللغة وأصول النحو (الأبنية الصرفية ، وإعراب الكلمات) وذلك دون الخروج عن المألوف اللغوي أو روح اللغة .

ولابد للضرورة من وجهٍ تخرّج عليه وإلا اعتبرت لحناً أو عيبا . ووجها التخريج في الصرورات هما تشبيه شيء بشيء أو ردّ الشيء إلى أصله . قال الشاعر :

مهلاً أعاذل هل جرّبت من خلقي
أني أجود لأقوام وإن ضننوا

(*) هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي 322 — 392هـ. وجني بكسر الجيم وتشديد النون وكسرها وسكون الياء ولد في الموصل ونشأ وتربّى فيها وتوفي في بغداد. درس على أستاذه أبي علي الفارسي ولازمه أربعين عاما تقريبا، كان معتزليا وقد أثر منهج المعتزلة في أسلوب تفكيره حتّى أعطاه طابعا فلسفيا أو منطقيا إن شئت . لازم المتنبي وكان يقول فيه إذا سئل عن شيء غامض (عليكم بالشيخ الأعور ابن جني فسلوه) فإنه يقول ما أردت وما لم أرد ، وقال فيه الثعالبي «هو القطب في لسان العرب ، وإليه انتهت الرياسة في الأدب» ومن تلامذته الشاعر الشريف الرضي ، والنحوي علي بن زيد القاشاني ، وثابت بن محمد الجرجاني . خلّف لنا ابن جني كتبا كثيرة منها ما هو مطبوع وما لا يزال مخطوطا . وكتبه التي عثر عليها سبعة وستون كتابا ، والخصائص أهمها .

والضرورة في هذا البيت هي ضننوا . والشاعر يقصد ضنّوا ، ولكنه اضطر إلى فك الإدغام مجاراة للقافية التي انسحبت في جميع الأبيات على هذا الروي . والوجه الذي تخرّج عليه الضرورة هنا ، أنه أعاد الفعل إلى أصله قبل الإدغام ، لأن أصل ضنّ هو ضَنَنَ . قال سيبويه وهو أول من أشار إلى هذا الموضوع الذي نحن بصدده «وقد يبلغون بالمعتل الأصل فيقولون رادِدٌ في رادٌّ وضننوا في ضنّوا»[1] .

والضرورة التي وقعت في البيت من ضرورات التغيير ، لأن تغييرا معيّنا وقع على الكلمة .

والتقسيم الأولي للضرورات هو كالتالي :

ضرورات حذف : كقصر الممدود ، وترخيم غير المنادَى ، و ....

ضرورات تغيير : كتأنيث المذكر ، وتذكير المؤنث ، وصرف الممنوع ومنع المصروف ، و ....

ضرورات زيادة : إشباع الحركة التي يتولد منها حرف ، وتنوين المنادَى المبني على الضم ، و ....

وستجد شواهد كافية على كل نوع فيما يلي من صفحات .

قد يلتقي علماء اللغة ونقادها أو يفترقون في فهمهم للضرورة الشعرية . فهم يتباينون في ذلك ما بين مؤيد ومعارض ، مع إتفاقهم على كونها ظاهرة لغوية . ولكن أيًا منهم لم يوسعها بحثا ولا وضع لها منهاجا محكما . لقد مرت هذه الظاهرة في مؤلفات عدد غير قليل من لغوي العربية ونقادها ، ولكنها كانت أفكاراً مبعثرة غير متجسدة ولا ملتحمة ولا تشكل نسيجاً متكاملاً . يعتبر ابن جني من أكثر اللغويين توسعاً في هذه الظاهرة ولكننا لو أردنا العودة إلى نصوصه (الخصائص مثلا) لأعيانا البحث ، لمفهومه المتناقض حينا ، أو لضبابيته أو دخوله في عموميات جدلية فلسفية حينا آخر .

لذا ، سأحاول في هذه الدراسة ما أمكنني ذلك ، دراسة موقف ابن جني من قضية الضرورات ، ومحاولة ايجاد منهج له يسمح باستيعاب واحتواء جميع أفكاره الواردة في ذلك الشأن ، ومن ثم تطويعها وتبويبها لتشكل بحثا قائما بذاته .

مفهوم ابن جني للضرورة الشعرية

يكاد ينسجم مفهوم ابن جني للضرورة الشعرية مع تعريف الجمهور لها بأنها مخالفة الشاعر لمقاييس اللغة وأصول النحو ولكنه على العموم لا يأخذ بما أضافه الآخرون من علماء اللغة إلى الضرورة (مما ليس للشاعر عنه مندوحة). فقد ذكرني أكثر من موضع من نصوصه لدَى تخريجه الضرورة أن بإمكان الشاعر أن يقول كذا وكذا دون أن يقع في كسر الوزن أو كسر الإعراب كما يظهر لنا التطابق التام والانسجام الكامل تقريبا بين مفهوم ابن جني للضرورة ومفهوم أستاذه ، أبي علي الفارسي ، فهو يحاول دائما أن يرتكز على أفكار أستاذه وآرائه ، محيلا إليه في كثير من المواقف المتشابكة والتي يمكن أن تفسر على أكثر من وجه ، كما أنه ينتصر في غالب الأحيان لمواقف أستاذه .

لا يفسر ابن جني لجوء الشاعر إلى الضرورة لضعف فيه أو لقصور في لغته ، إنما يضطر الشاعر إلى ذلك مع علمه به ولو على استكراه ، ووجود هذه الضرورة لا يثير لديه أي التباس مع ما فيها من تجشم . يقول ابن جني في هذا الموضع : «فمتَى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها فاعلم أن ذلك على تجشم منه وإن دلّ من وجه على جَوَره وتعسفه فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمّطه (تكبره) وليس بقاطع دليل على ضعف لغته ولا قصوره عن اختياره الوجه الناطق بفصاحته ... وإن الشاعر إذا أورد منه شيئا فكأنه لأنسه بعلم غرضه ومراده به لم يرتكب صعباً ولا تجشّم إلا يسيرا ، وافَقَ بذلك قابلا له ، أو صادف غير أنس به ، إلاّ أنه قد استرسل واثقاً ، وبنَى الأمر على أن ليس ملتبسا»[2] .

اختلف علماء اللغة المعاصرون في فهم موقف ابن جني

(1) باب ما يحتمل الشعر ، كتاب سيبويه ، ص 8 ــ 13
(2) الخصائص ، ج 2 ، ص 392 ــ 393

من مقولة سيبويه «وليس شيء يضطرون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجها» فمنهم من قال أن ابن جني أساء فهم هذه المقولة ، وذلك بفهمه لها فهما فلسفيا ومنطقيا ، فهما مغايراً لموقف سيبويه النحوي البحت[3] .

يفرق ابن جني بين الضرورة والخطأ . فكل ما لا يقاس عليه ولم يرد عن العرب سماعا فهو من باب الخطأ ، وإزاء ذلك عقد عدة أبواب للتفريق بين الضرورة ، والغلط ، واللحن ، والسقطة ، والفاسد منها ، وما شابه ذلك[4] فمثال الغلط قول الشاعر :

غدا مالك يرمي نسائي كأنما
نسائي لسهمي مالك غرضان
فيا ربّ فاترك لي جهينة أعصرا
فمالك موت بالقضاء دهاني

والغلط في مالك : فهو ملك وليس مالكاً .

ومثال السقطة قول المخبّل السعدي :

وإذا ألمّ خيالها طرقتْ
عيني فماء شئونها سجْم

والصحيح طرفت وليس طرقت .

ابن جني إذاً يفهم الضرورة فهماً جماليا ، فتراه يقول في موضع «هذه ضرورة فاسدة» أو «هذا لحن» أو «هذه عجرفة عارية عن الصنعة» وفي موضع آخر «هذا قبيح» أو «هذا من أقبح الضرورات» أو «هذا حسن أو مستحسن» وهكذا . لذا يمكن لنا من خلال فهم ابن جني للضرورة أن نذكر أنواعها .

— ضرورة حسنة أو مستحسنة : وقد سماها بذلك لأن الغريزة لا تنفر منها مع قبول النفس لها أيضا ، فهي لا توقع تغييراً جذريا في بناء الكلمة ، كصرف الممنوع من الصرف وما يرد في الشعر من اعتراض . كقول الشاعر :

وقد أدركتني — والحوادث جمّة —
أسنة قوم لاضعاف ولا عزل

وقول عمر بن أبي ربيعة :

صددت فأطولت الصدود وقلّما
وصال على طول الصدود يدوم

— ضرورة مستهجنة : كتلك التي يحدث في كلماتها حذفا كبيرا وتغييرا طويلا

قواطنا مكة من ورق الحمَى

والضرورة هنا في الحمي ويريد الحمام .

— ضرورة قبيحة : تكون كذلك حين تخالف القياس . قال الشاعر :

لها مقلتا حوراء طُلّ خميلة
من الوحش ما تنفك ترعَى عرارها

وقوله :

قد أصبحت أم الخيار تدّعي
عليّ ذنبا كلّه لم أصنعُ

قال أصنع بالرفع والواجب كسرها .

— ضرورة فاسدة : حين تؤدي إلى تغيير في المعنَى وتحريف يقود إلى فساد في الصنعة وعجرفة بها ، كقول عبد بني الحسحاس :

وما دمية من دمى ميسنا
ن معجبة نظراً واتصافا

تخريج ابن جني للضرورة

تمثل ابن جني في تخريجه الضرورة مقالة سيبويه «وليس شيء يضطرون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجها» وقد ذكرنا شيئاً مما قاله المعاصرون من علماء اللغة في هذه

---

(3) الدكتور فاضل السامرائي في كتابه ابن جني النحوي ، والسيد ابراهيم محمد في كتابه : الضرورة الشعرية .
(4) باب في أغلاط العرب : الخصائص ، ج 3 ، ص 273 — 282
باب في سقطات العلماء ، نفس المصدر ، ص 282 — 309 ، وسواهما مما شابه ذلك .

المقولة إلاّ أنني أريد القول أن ابن جني يفضل التعليل المنطقي – الكلامي على التعليل الفقهي أو النحوي ، وله في ذلك «باب ذكر العربية أكلامية هي أم فقهية»[5] ، وله مقولة تضارع ما قاله سيبويه قال ابن جني : «هذا أصل يدعو إلى البحث عن علل ما استكرهوا عليه ... ويأخذ بيدك إلى ما وراء ذلك»[6] ، وقد أفرد باباً في «الخصائص» لذكر هذه العلل . وفي تحليله للقضايا اللغوية يعتمد مبدأ القياس والقياس المبني على السماع ، معتزا في تفسير ذلك بأفكار أستاذه . يقول : «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، وإن شذّ الشيء في الاستعمال وقوي في القياس كان استعمال ما كثر استعماله أولى ، وإن لم ينته قياسه إلى ما انتهى إلى استعماله واما ضعف الشيء في القياس وقلته في الإستعمال فرذول مطرّح»[7] .

كما أننا نفهم وجها من وجوه التخريج عند ابن جني وذلك في (باب في عدم النظير) ، فإذا دلّ دليل على الضرورة فإنه يعوزك البحث لايجاد النظير ، وإن لم يقم الدليل فالبحث عن النظير يصبح واجبا[8] ويخرج الضرورة في حمل الشيء على الشيء وله في ذلك باب «حمل الشيء على الشيء من غير الوجه الذي أعطى الأول ذلك الحكم»[9] ، وذلك كقولنا في الإضافة إلى ما فيه همزة التأنيث بالواو نحو حمراوي وصفراوي ، وهذا صحيح لأن الهمزة للتأنيث ، لكن العرب قاسوا وخرّجوا على ذلك ما لا يقاس عليه بأن قالوا في الإضافة إلى علباء وحرباء : علباوي وحرباوي على الرغم من أن الهمزة هنا ليست للتأنيث ، لكنها لما شابهت همزة حمراء بالزيادة حملوا عليها همزة علباء وهو أيضا يخرّج الضرورة في ردّ لفظها إلى أصلها ، وتفسير ابن جنى لذلك بأنه يمكن النطق بأصل اللفظة ، ولا يتعذّر ، إلا أنه يمتنع استكراها للكلفة به . انظر أيهما أسهل قولا : سيود أم سيّد ، مطُوويٌ أم مطويٌّ ، فَسَيود ومطووي أصلا المفردتين سيّد ومطويّ قبل الإعلام[10] .

يقول ابن جني في باب (الحمل على أحسن الأقبحين)[11] ، أن الشاعر يرتكب الضرورة حين يكون مخيّراً بإحدَى ضرورتين ، فينبغي هنا حمل الأمر على أقلّهما فحشا[12] ، أي تخريج الضرورة إلى الأسلم ، شريطة مطابقتها للقياس .

وفي باب الاستغناء بالشيء عن الشيء يفسر لجوء الشاعر إلى الضرورة من خلال استغناء العرب بمفردات عن مفردات أخرى ، كاستغنائهم بترك عن وَدَع ووَذَر ، وليلة عن ليلاه[13] . يقول الراجز :

في كـل يـوم مّا وكـل ليلاه
حـتّى يـقـول كـل راء راه
يـا ويحه من جمل ما أشقاه !

وفي الضرورة إذا وردت مخالفة للجمهور يقول ابن جني في «باب فيما يرد عن العربي مخالفا لما عليه الجمهور»[14] «أن ينظر في حال ذلك العربي وفيما جاء به ، فإن كان الإنسان فصيحا في جميع ما عدا ذلك القدر الذي انفرد به ، وكان ما أورده مما يقبله القياس ، إلاّ أنه لم يرد به استعمال إلا من جهة ذلك الإنسان ، فإن الأولى في ذلك أن يحسن الظن به ، ولا يحمل على فساده»[15] ولكن شريطة أن لا يخالف القياس . فإذا قام برفع المفعول وجر الفاعل ورفع المضاف إليه يردّ ولا يقبل منه ، لأنه جاء مخالفا للقياس والسماع جميعا .

مثال[16] :

يوم الصليفاء لم يوفون بالجار

(5) الخصائص ، ج 1 ، ص 48 – 96
(6) نفس المصدر ، ص 53 – 54
(7) نفس المصدر ، ص 357 – 370 .
(8) الخصائص ، ج 1 ، ص 197
(9) نفس المصدر ، ص 213 – 214
(10) نفس المصدر ، ص 49 – 50
(11) نفس المصدر ، ص 212 – 215
(12) نفس المصدر ، ص 212 – 213
(13) نفس المصدر ص 266 – 267
(14) نفس المصدر ، ص 385 – 390
(15) نفس المصدر ، ص 385
(16) نفس المصدر ص 388 .

فقد شبه للضرورة (لم) بـ(لا) . قال ابن جني : قد يشبّه حروف النفي بعضها ببعض وذلك لاشتراك الجميع في دلالته عليه .

خرّج ابن جني البيت السابق بناء على ما أنشد عن (المرار بن سعيد) :

أجدَّك لن ترَى بثُعَيْلبات
ولا بيْدان ناجية ذمولا

فقد استعمل (لن) في موضع (ما)

من مواطن الضرورات[17] :

— قد تحذف العرب الموصوف ، مع أن حذفه يؤدي إلى لبس وغموض خاصة إذا كانت صفة الموصوف جملة ، فلا يجوز حذف الموصوف هنا ، ومما جاء على سبيل الضرورة قوله :

جادت بكفَّيْ كان من أرمَى البشر

أي بكفيّ رجل كان من أرمَى البشر ، وكان هنا زائدة .

— لا يجوز أن يستعمل حرف الجر أو الظرف في حال السعة استعمال الأسماء ، كما قال :

وصاليات ككما يؤثفين

وتقديره : وصاليات مثل ما يؤثفين

— تجيز العرب التقديم والتأخير في كثير من الحالات ، وفي الأحوال العادية (نثرا وشعرا) لكن هناك بعض الحالات لا يجوز فيها التقديم والتأخير كتقديم الصلة على الموصول والصفة على الموصوف والجواب على المجاب شرطا أو قسماً أو غيرهما ، فلا يجوز أن نقول أقمْ إن تقُمْ . ولا يجوز قول الشاعر :

فلم أرْقه إن ينجُ منها وإن يمُتْ
فطعنة لا غسٌّ ولا بمغمَّر

ويريد : إن ينجُ منها فلم أرقه .

— الفرق والفصل مقبولان في النثر والشعر ، لكن بعضهما لا يقبل إلا على سبيل الضرورة مع قبحه وعدم الاعتداد به ، كالفصل بين المضاف والمضاف إليه وبين الفعل والفاعل بأجنبي كقول الشاعر :

فقد والشك بيّن لي عناءٌ
بوشك فراقهم صُردٌ يصيح

أراد : فقد بيّن لي صردٌ يصيح بوشك فراقهم والشك عناء . (وعناء) مرفوعة لأنها تعود إلى الشك وليس إلى بيّن .

وقوله أيضا :

وما مثله في الناس إلا مملكا
أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

ومن القبيح جدا : الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف وحرف الجر . كقول ذي الرمّة :

كأن أصوات من ايغالهن بنا
أواخر الميس أصوات الفراريج

أراد : أواخر الميس من ايغالهن بنا أصوات الفراريج .

— يعتبر ابن جني الاعتراض من الضرورات الحسنة ، لكن الإعتراض بين الجار والمجرور وبين المضاف والمضاف إليه لا يجوز بالإضافة إلى قبحه ، جاء من ذلك قول الشاعر :

لو كنت في خلقاء أو رأس شاهق
وليس إلى منها النزول سبيل

أراد : وليس إلى النزول منها سبيل .

— ومن مواطن الاضطرار ، إضافة المصدر إلى الفاعل دون المفعول ، كقوله :

فزججتها بمزجة
زجّ القلوص أبي مزادة

أي : زجّ أبي مزادة القلوص . ففصل بينهما بالمفعول به . هذا مع قدرته أن يقول : زجّ القلوص أبو مزادة .

(17) من خلال باب في شجاعة العربية ، الخصائص ، ج 2 ، ص 360 — 441

— ترد الضرورات في الأسماء والأفعال والحروف التي يصيبها التحريف :

كقول الشاعر (في الأسم) :

وسائلة بثعلبة بن سير
وقد علقت بثعلبة العلوق

يريد : ثعلبة بن سيّار

وقوله في (الفصل) :

خلا أن العتاق من المطايا
أحسن به فهُنّ إليه شوسُ

فالضرورة في أحسْن والصحيح أحْسَنْ

ومما جاء من المضاعف مشبّها بالمعتلّ قولهم في ظَلِلْتُ : ظَلْتُ ، وَأَحْسْتُ أَحَسْت .

وقولهم في تحريف (الحرف) قوله :

رُبَ هيضل لجب لففتُ بهيضل

قال رب مخفّفة بدون تشديد والصحيح تشديدها . ومن ذلك قولهم في ثم : فُمّ

دوافع الضرورة في نظر ابن جني

— الخفة أو الاستخفاف : فقد يلجأ الشاعر إلى الضرورة وذلك طالبا للخفة مما يضطره إلى مخالفة القياس أحيانا حتّى لا يقع ما هو ثقيل على النفس[18] . يقول علقمة :

كأن ابريقهم ظبي على شرفٍ
مفدّم بسبا الكتّان ملثوم

وقد أراد : بسبا : سبائب .

قال ابن جني «وقد يحذفون بعض الكلم إستخفافا ، حذفاً يخلّ بالبقية ، ويعرّض لها الشُّبه»[19] .

— الإتساع والتصرف : وقد تأتي العرب بالضرورة بدافع من الاتساع والتصرف وذلك بترك الأخف إلى الأثقل[20] ، ومن ذلك على سبيل المثال ومن باب الإستحسان قول عمر بن أبي ربيعة :

صددت فأطولت الصدود وقلما
وصال على طول الصدود يدوم

فقد ردّ الشاعر أطول إلى الأصل لأنها من أطال يطيل ، فكان يجب أن يقول : أطلتِ .

وقوله :

ذر الآكلين الماء ظلما فما أرَى
ينالون خيراً بعد أكلهم الماء

فالشاعر يريد :

قوما يبيعون الماء فيشترون بثمنه ما يأكلونه . فاكتفَى بذكر الماء الذي هو سبب المأكول عن ذكر المأكول ، وتفسير ابن جني لهذا البيت هو الاكتفاء بالسبب عن المسبَّب . وهذا من باب الإتساع والتصرف[21] .

— لا يذهب ابن جني إلى أن الضرورة (ما ليس للشاعر عنه مندوحة) مع أنه لا ينكر أن العرب تستعمل الضرورة مع قدرتهم على تركها ولكنه أضاف : بأنهم يعدونها في مثل هذه المواضع لوقت الحاجة إليها، وهذا يعارض فكرة (ما ليس للشاعر عنه مندوحة)[22] هذا الكلام يفضي إلى التناقض ، لأن اعتبار الوزن الشعري في الضرورة يؤدي إلى القول بالإضطرار ، والقول بالسعة يناقض القول بالاضطرار ، قال ابن جني : إن العرب قد تلزم الضرورة في الشعر في حال السعة أنساً بها واعتياداً لها ، وإعداداً لذلك عند وقت الحاجة إليها[23] .

— ومن الدوافع التي تضطر العرب إلى الإتيان بالضرورة «الفصيح يجتمع في كلامه لغتان فصاعدا» وذلك بأن يجتمع في لغة رجل واحد لغتان فصيحتان استخدمت كلاً منهما قبيلة حتّى كثر استعمالها ، ثم جاءت قبيلة هذا الرجل فأبقت على استعمالها معا لأن العرب

(18) الخصائص ، ج 1 ، ص 54
(19) الخصائص ، ج 1 ، ص 81
(20) نفس المصدر ، ص 133
(21) نفس المصدر ، ص 152
(22) نفس المصدر ، ج 3 ، ص 60 ، 61
(23) المصدر السابق ، ص 60 ، 61

تفضل ذلك للحاجة إليه في أوزان شعرها[24] قال قطرب :

وأشرب الماء ما بي نحوهو عطش
إلاّ لأن عيونه سيْلُ واديها

فقد استخدم هنا لغتين : الاشباع الذي يتولد منه حرف ، والإسكان .

موقف ابن جني من جواز الضرورة في الشعر المحدث

قال ابن جني في «باب في هل يجوز لنا في الشعر من الضرورة ما جاز للعرب أم لا ؟» : «كما جاز أن نقيس منثورنا على منثورهم ، فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم . فما أجازته الضرورة لهم أجازته لنا ، وما حظرته عليهم حظرته علينا . وإذا كان كذلك فما كان من أحسن ضروراتهم ، فليكن من أحسن ضروراتنا ، وما كان من أقبحها عندهم فليكن من أقبحها عندنا ، وما بين ذلك بين ذلك»[25] .

يحدد ابن جني هنا الخطوط التي يسمح بها للمحدثين للتمثل بالضرورة . فلا شك أنه أعطاهم الحق المطلق بذلك ولكن ضمن الحدود التي فرضت على القدماء ، فلا يحق للمحدث أن يأتي بضرورة لم تسمع عن القدماء . يحق للمحدث أن يقيس من الضرورات ضمن الأنواع التي استعملها القدماء . لذا فالحرية التي أعطاها ابن جني للمحدثين حرية محدّدة بحدود لا يجوز تجاوزها ، حرية لها أصولها ولها قواعدها . فما كان مسموحا به للقدماء فهو مسموح به للمحدثين ، وما كان محظورا على القدماء محظور على المحدثين .

لكنه قد يتبادر للذهن أن عذر المحدثين تمثلا بالضرورة أضيق من عذر القدماء لأن للمحدثين طريقة خاصة في النظم تعتمد على التأني والحوك والنظم المكتوب ولا تعتمد على الإرتجال شأن القدماء في ذلك . فبإمكان المحدث أن يتجنب الوقوع في الضرورة حيث يسمح له الوقت بذلك ، على ذلك يجيب ابن جني :

— ليس جميع الشعر مرتجلا ، فمنه ما خضع للحوك والضبط شأنه شأن المحدث ، ومع ذلك فقد تضمّن الكثير من الضرورات[26] .

— من المحدثين من ينظم ارتجالاً وبنفس السرعة التي ينظم فيها القدماء أشعارهم[27] .

— لم يستنكر اللغويون العرب ما ورد من ضرورات في الشعر المحدث . وإن عيب على أحدٍ من المحدثين كأبي نواس عيب على الفرزدق أيضا . والمحدثون أولى بجواز الضرورة من القدماء[28] ، خاصة إذا ارتكب القدماء ضروراتهم في النثر الذي هو حال سعة كهمزهم مصائب ومناثر لأن الصواب فيهما هو مصاوب ومناور . قال الطرماح قياسا على ما ورد عن القدماء :

(مزائد) خرقاء اليدين مُسيفة
يخبُّ بها مستخلفٌ غير آئنِ

والصحيح هنا : مزاود وليس مزائد .

وقالت العرب في النثر أيضا : ضببَ البلدُ وأَلِل السقاء . أي ضبّ البلد وأل السّقاء . فهذا في شعر المولدين أولى بالاستعمال منه في نثر القدماء وفي سعة الحال عنهم .

ومع هذه الحرية التي يمنحها ابن جني للمحدثين فانه لا يسمح باستعمال اللحن الذي يرد عن القدماء . فما حظر عليهم وقبح عندهم ، كان كذلك عند المحدثين . فها هو لا يوافق على الضرورة التي في بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس ..... (انظر سابقا)

وقال ابن جني في ذلك أن الشاعر غير معذور[29] .

كيف يتصرف الشاعر عندما يضطره الأمر إلى الوقوع في أحد أمرين ؟ : زيغ الإعراب أو قبح الزحاف .

يجيب ابن جني على ذلك فيما يلي :

(24) نفس المصدر ، ج 1 ، ص 370
(25) الخصائص ، ج 1 ، ص 324
(26) نفس المصدر ، ج 1 ، ص 324 ، 327 ، 328 .
(27) الصفحات السابقة ونفس المصدر السابق
(28) الصفحات السابقة .
(29) الخصائص ، ج 1 ، ص 329 .

— إنه لا مانع لدَى الجفاة الفصحاء من العرب من الوقوع في قبح الزحاف إذا أدَّى إلى صحّة الإعراب[30] ويضيف : وإذا كان الأمر كذلك . فلو قال في قوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمي

(ألم يأتك) لكان أقوَى قياسا . وكذلك قول الأخطل في بيته :

كلمع أيدي مثاكيلٍ مسلَّبة
يندبن ضرس بنات الدهر والخطب

فأقوَى القياسين أن يقول «مثاكيلَ»[31] .

— كما تحتمل ضرورة زيغ الإعراب إذا حافظت على سلامة الوزن[32] . وعلى ذلك تقبل الضرورة في قول أمية بن أبي الصلت .

سماء الإله فوق سبع سمائيا

لأنه لو قال سمايا (حيث يصح الإعراب) لكسر الوزن .

ومنه كذلك قول الكميت :

خريع دواديَ في ملعب
تأزّر طوراً وترخي الإزارا

لأنه لو قال (دوادٍ) لكسر البيت ، وليس كذلك قول المتنخّل الهذلي :

أبيت على معاري فاخرات
بهنّ ملوّبٌ كدم العباط

لأنه لو قال (معارٍ) لما كسر الوزن .

وبعد ،

فكل ما أرجوه أن تكون هذه الدراسة قد أعطت غايتها ، وغايتها هي في إبراز أفكار ابن جني من قضية الضرورات ، وذلك مما تبعثر منها في نصوصه المختلفة ، خاصة وأن النصوص التي كتبها لم تكن هدفا موجها للضرورات ، وإنما قام بتطرقه لها تلميحا وكلما سمح الموقف اللغوي بذلك .

لم يفهم ابن جني الضرورة فهما مستقلا ، وإنما كان فهمه لها معتمدا على ما قدمه في ذلك (إلى قدر كبير) كل من سيبويه وأبي علي الفارسي ولغويين آخرين . لذا ، فقد كان من الصعب تحديد مفهوم ابن جني واستقلاليته من هذا الجانب لكثرة ما داخله من أراء إما معلن عنها لأنها لسواه ، أو ملتبس عليه بها أو متناقضة . ونحن إذ نتسامح مع مؤلف ناشئ يحاول أن يبني مواقفه الشخصية بالاعتماد على آراء غيره ، لا نتسامح مع ابن جني كلغوي مرموق ينتظر منه الكثير ، في كثرة احالاته ، واقتباسه واستشهاده بأبي علي الفارسي وسيبويه ، لأن في ذلك محواً لشخصيته وخطراً مباشرا على معطياته . وإذا كان ابن جني متناقضا (بعض الشيء) — في الضرورة ، فهما وتوجيها وتخريجاً — فهو بالضرورة معذور ، ومردّ ذلك إلى كونها ظاهرة حديثة النشأة . فسيبويه كان أول من أشار إليها ، ولا يفصله عن ابن جني إلا زمن قصير نسبيا .

يبرز تناقض ابن جني من خلال عدد من المواقف ، نذكر منها التفريق بين الخطأ واللحن من الضرورات . فقد اعتبر عدداً منها ضرورات لحن أو ضرورات قبيحة بينما أجازها في مواضع أخرى مع أن العلّة واحدة .

يعتمد ابن جني في فهمه الضرورة على القياس ، ويأخذ بها إذا كانت على قياس أو سماع أو قياس مبني على سماع . وقد يأخذ بالاجتهاد ، فاللغويون والنقاد والبلاغيون القدامَى يأخذون جميعهم بمبدأي القياس والسماع في توجيه الضرورة . القياس على من ، والسماع ممن ؟ ربما يطرح هذا التساؤل شيئا من التشكيك بالشعر المحدث الذي أولاه ابن جني بعض عنايته من خلال مواقفه الايجابية من المتنبي . لقد أعطَى القياس أو السماع هنا الحق المطلق للقديم ، بغض النظر عن المحدث ، ليعتبر المصدر الوحيد للمحدثين في جيده ورديئه . ألم تر ما قاله

(30) نفس المصدر ، ص 333
(31 ، 32) نفس المصدر ، ص 333
(33) الخصائص ، ج 1، ص 324
(34) انظر البيت ، ص 11 .

ابن جني في باب (هل يجوز لنا في الشعر ما جاز للعرب أو لا ؟) :

«كما جاز أن نقيس منثورنا على منثورهم فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم»[33] .

لا شك في أن هذا المفهوم يؤدي إلى الطعن بالمحدثين من الشعراء كبشار بن برد والمتنبي وأبي نواس وبشعراء آخرين من بعدهم ، ولهذا ، يصبح في مفهومهم أن أي أعرابي أفضل في سليقته اللغوية من المتنبي المتمكن من اللغة دربة وسليقة من خلال قواعدها (نحوا وصرفا)، فقط لأن ذلك قديم وهذا محدث ، علما بأن أغلاطا نحوية كثيرة ارتكبها القدماء في الكثير من المواقف التعبيرية الشعرية واللغوية أيضا ، فهل معنى ذلك أن نأخذ بها على علاّتها ، قال المتنخّل الهذلي[34] وهو من القدماء :

فالضرورة في (معاريّ) . وقد يأتي الشاعر بالضرورة بخروجه عن روح اللغة ومقاييسها إذا خاف أن يقع في كسر الوزن ، فمعاريّ اسم منقوص يجب أن تحذف ياؤه هنا لوجوب العلة . والتخريج أن الشاعر قد اضطر إلى أن يبقي على الياء ، لماذا ؟ هل لخوف من كسر الوزن ؟! فلم لا يقول (أبيت على معار فاخرات) وبذلك يصحّ الوزن وكذلك الاعراب . فارتكاب الضرورة هنا إذا خطأ وغير جائز . فهل يصبح القياس عليه أو السماع منه واجبا ولمجرد أن قائله من قدماء الشعراء ومن ثم فعلى المحدث أن يخضع له خضوعا مطلقا ؟ بودّي أن يتناول هذا التساؤل التراث كله حتّى يتسنّى لنا فصل غثه عن سمينه .

حين توجهت هذا التوجه النقدي في خاتمة دراستي ، فذلك لا يعني أنها دراسة نقدية لموقف ابن جني من الضرورات الشعرية . لقد سبق تأكيدي على أنها دراسة منهج لموقف ذي أفكار مبعثرة ومشتتة ، وليس بالضرورة أن تتجه اتجاها نقديا لهذا الموضوع . لقد كان هدفي وغايتي ابراز أفكار ابن جني (المبعثرة والغامضة والتي لا يجمع بينها أي رابط غائي ، ولا تندرج ضمن نسق معين ولا في إطار محدد) في دراسة منهجية . وإذا كنا نتطلع إلى بحث نقدي لهذا الجانب الهام ، فسيكون الأمر مختلفاً مما تحتم الضرورة علينا العودة ليس إلى ما قاله ابن جني في الضرورات فقط ، ولكن ستتوجب العودة علينا إلى ما قاله سيبويه وأبو علي الفارسي لأنهما مثلاه في هذا الموضوع ، وأخص بالذكر الثاني منهما . كما يجب أن نأخذ بالاعتبار دور المعطيات اللسانية الحديثة في تفسير وفلسفة هذه الظاهرة من خلال تطبيق الدراسات اللغوية ـ النقدية على الشعر العربي قديمه وحديثه .

مراجع البحث

1) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني . تحقيق : محمد علي النجار (بيروت : دار الهدى للطباعة والنشر) ط 2 ، ج 1 ، ج 2 ، ج 3 .

2) الضرورة الشعرية دراسة أسلوبية ، السيد ابراهيم محمد (دار الأندلس ، 1979) .

3) ابن جني النحوي ، د. فاضل السامرائي (بغداد : دار النذير ، 1969) .

الفارابي اللغوي

— 8 —

تحقيق : د. أحمد مختار عمر

— فَعَلِيّ —

13 – ومما جاء منسوبا من هذا البناء

(ب) العربي واحد العرب . والقصبي واحد القصب من الثياب .

(ر) الجدري لغة في الجُدَرى . ويقال «شر الرأي الدبريّ»[1] أي الذي سنح أخيرا عند فوت الحاجة . والصفري من المطر[2] . والعشري العِذْي[3] .

(س) الحرسي واحد الحَرَسَ .

(ك) العركي واحد العَرَك .

(ل) وهو عسلي اليهود[4] . والقملي الرجل الصغير الشأن الحقير .

(م) العجمي واحد العجم .

(ن) الدفني ضرب من الثياب المخططة .

— فَعَلِيَّة —

14 – ومن الهاء

اللطمية الدُّرَّة .

* * *

— فَعُل —

15 – باب فعل بفتح الفاء وضم العين

(ث) يقال رجل حدِث وحدُث أي كثير الحديث .

(ح) رجل فرِح وفُرُح بمعنى .

(د) العَبُدُ استعمله الشاعر في موضع العَبْد ، قال الفراء هو من ضرورة الشعر ، وهو قوله[5] :

أبني لُبينى إنّ أمكمُ
أَمَةٌ وإن أباكُم عَبُدُ[6]

---

(1) هو مثل ورد في الميداني (1 / 502) وجمهرة الأمثال (1 / 544) .
(2) هو المطر الذي يأتي في أول الخريف (صحاح) .
وفي هامش س : المطر الذي يأتي في الحر ، وكذا في ق .
(3) وهو الزرع الذي لا يسقيه إلا ماء المطر (صحاح) .
(4) عسليّ اليهود علامتهم ، كما في الصحاح واللسان .
(5) القائل أوس بن حجر كما جاء في الصحاح .
(6) في حاشية س : قال ابن الأنباري : العُبد أشد عبودية من العَبْد وكذلك يجعل الضم للمبالغة في الوصف كقولك رجل عجُل أشد عجلة من العجِل .
والبيت في ديوان أوس لكن ضبط بسكون باء «عبد» (صفحة 21) .

وهو العضد ، يذكر ويؤنث .
ويقال رجل نجِد ونجُد أي شجاع .
(ر) رجل بكِر في حاجته وبكُر .

ورجل حذِر وحذُر .
والسمر من العِضاه .
ويقال وظيف عجِر وعجُر للغليظ .
ورجل نكِر ونكُر .

(ز) هو العجز يذكر ويؤنث .

(س) يقال رجل ندِس وندُس أي فَهِم . ونطِس ونطُس للمبالغ في الشيء .

(ش) يقال مكان عطِش وعطُش للقليل الماء .

(ع) هو السبع .

وهي الضبع . والضبع أيضا السنة المجدبة ، يقال أكلتهم الضبع وذلك إذا أجدبوا ، قال الشاعر[7] :

أبا خراشة إما كنت ذا نفر
فإنّ قومي لم تأكلهم الضبع

ويقال رجل طِمع وطمُع .

(ل) الرجل واحد الرجال
ويقال رجل عجِل وعجُل بمعنى .

(ن) يقال رجل فطِن وفطُن بمعنى .

— فَعُلَة —

16 – ومما ألحقت الهاء من هذا البناء

الصدقة الصَّداق ، قال ابن جُريج وكان من أفصح الناس : قضَى ابن عباس لها بالصَّدُقة .

المثلة العقوبة .

— فَعِل —

17 – باب فعل بفتح الفاء وكسر العين

(ب) يقال رمح ثلب أي متثلم ، وقال[8] :

ومطَّردٌ من الخَطِّ يٌّ لا عارٍ ولا ثَلِبُ

ورجل أجرب وجرِب بمعنى .
ورجل أحدب وحدِب بمعنى .
وظليم خشب ، وهو نحو الخشن .
والذرب الحاد من كل شيء .
والسلب الطويل . والسنب من صفة العاشق .
والشذب الطويل .
والظرب واحد الظراب وهي الروابي الصغار ، وبه سمي الرجل .

والعقب عقب الإنسان . ويقال جئت في عقب الشهر إذا جئت بعد ما يمضي . وعقب الرجل خَلَفه .

ومعدي كرب من أسماء الرجال . وأبو كرب اليماني أحد التبابعة ، واسمه أسعد .

ويقال رجل نخب أي جبان ، قال الشاعر :

ألا بلِّغ أبا سفيان عني
فأنت مجوَّف نخِب هواء[9]

(ث) يقال رجل حدث أي كثير الحديث حَسَنُه .
والحفث الذي يكون مع الكرِش .

ويقال رجل شبث إذا كان التشبث طبعا له .
والفحث قلب الحفث .
ويقال رجل مغث أي مَرِس[10] .

(ج) يقال مكان حرِج وحَرَج أي ضيق .
والعفج واحد الأعفاج[11] .

(7) هو عباس بن مرداس ، كما جاء في اللسان . والبيت من شواهد النحو المشهورة .
(8) هو أبو العيال الهذلي ، كما ورد في الصحاح .
(9) لم يرد الشعر لا في الصحاح ولا في اللسان . والبيت لحسان بن ثابت . (الديوان صفحة : 63) . وورد في س : نخب جبان .
(10) عبارة الصحاح : أي مرس مصارع شديد العلاج .
(11) عبارة الصحاح : الأعفاج ما يصير الطعام إليه بعد المعدة .

والفرج الذي لايزال ينكشف فرجه .

(د) يقال سحاب برد أي ذو بَرَد .

وشيء حصد أي محصد أي مُحْكم شديد الفتل .

وفرس عتد أي مُعَدّ للجري . والعضد لغة في العضُد . والعقد[12] جمع عَقِدة .

ويقال رجل فرِد وفرْد بمعنى .

والفرد السحاب المتعقد بعضه على بعض .

وهي الكبد . وكبِد القوس ما بين طرفي العِلاقة . وكبد السماء وسَطها . والكتد لغة في الكَتَد[13] .

والنجد الشجاع .

(ذ) [الشقذ الذي لا يكاد ينام][14] . وهي الفخذ . والفخذ في العشائر أقل من البطن .

(ر) يقال رجل بكر في حاجته أي صاحب بكور .

والخبر جمع خَبِرة ، وهي الخَبْراء[15] . واليوم الخدر الندِيّ . والخضر صاحب موسى صلوات الله عليهما . والخمر الذي خامره داء ، ويقال هو الذي في عقب خُمار ، وقال[16] :

أحار بن عمرو كأني خَمِرْ
ويعدو على المرء ما يأتمِرْ

ويقال عود دعر أي كثير الدُّخان

والذمر الشجاع .

ويقَالُ رُطَب[17] سَقِر أي ليس له عسل .

والشقر شقائق النعمان

والصبر ضرب من الأدوية .

والضفر جمع ضِفرة وهو من الرمل ما تعقد بعضه على بعض.

ويقال رجل ظهر للذي يشتكي ظهره .

ويقال وظيف عجر غليظ

والفدر الأحمق . ويقال رجل فقر للذي يشتكي فَقَاره .

وثمر قشر للكثير القِشْر

والكفر العظيم من الجبال .

والمقر الصبِر .

ويقال حمار نعر إذا دخلت النُّعَرة[18] في أنفه . ويقال رجل نكر للذي ينكر المنكَر . وهو النمر . ويقال رجل نهر أي صاحب نهار ، ويقال :

إن تك ليليّاً فإني نَهِر
متَى أرَى الصبح فلا أنتظر[19]

وجمل هبر أي كثير اللحم . والهذر الكثير الكلام .

(ز) العجز لغة في العَجُز . واللحز الضيق البخيل .

---

(12) العقد ما تعقد من الرمل .
(13) وهو ما بين الكاهل إلى الظهر (صحاح)
(14) زيادة من س . وهو موجود في الصحاح .
(15) الخبراء القاع ينبت السدر ، كما جاء في حاشية الأصل وفي الصحاح .
(16) هو امرؤ القيس كما ورد في الصحاح .
والبيت مطلع قصيدة وردت في الديوان (صفحة : 154) .
(17) لم أجد الكلمة بهذا المعنى فيما تحت يدي من معاجم .
(18) والنُّعَرة ذباب ضخم أزرق العين أخضر وله إبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة (صحاح) .
(19) البيت في الصحاح واللسان مع خلاف يسير ، ولم ينسب . قال ابن بري : البيت مغير ، وصوابه على ما أنشده سيبويه :

لست بـــليلي ولـــكني نهر لا أدلج الليل ولكن أبتكر

قلت أنا : البيت كما رواه الفارابي هو رواية الازهري (تهذيب اللغة 6 / 276) وقد نقله عن الفراء الذي قال إنه سمع العرب ينشدونه هكذا . فلا معنى لادعاء ابن بري. وورد في ق:

لا أدلج الليل ولكن أبتكر لست بـــليلي ولـــكني نهر
متَى أرَى الصبح فإني أنتشر

(س) يقال رجل أقعس وقعس بمعني [وهو نقيض الأحدب][20] .

ويقال للقوم هم على مرس واحد وذلك إذا استوت أخلاقهم .

(ش) يقال مكان عطش أي يابس .
وهو الكرش

(ص) العقص الضيق البخيل .

(ف) الخلف جمع خِلفة ، وهي الحامل من النوق .

وسلف الرجل زوج أخت امرأته .
والطرف نقيض القُعْدُد .
ويقال رجل قصف للسريع الانكسار عن النجدة .
وهي الكتف .

(ق) الحمق الأحمق .

والزعق النشيط الذي يَفزَع مع نشاطه من كل شيء .
والسرق السرقة .
والشرق اللحم الأحمر الذي لا دسم له .
والقرق المكان المستوي .
واللهق الأبيض .
والنبق ثمر السِّدْر .
(ك) العرك الصوت
والملك هو الله جل وعز . والملك واحد الملوك .

(ل) يقال رجل جدل أي شديد الجَدَل . ويقال مكان جرل أي ذو حجارة .

ودهر خبل أي ملتو على أهله ، والخضل النديّ والدحل الخَبُّ الخبيث . ويقال الخدَّاع للناس .

ويقال شعر رجِل ورجَل . والرخل الأنثى من أولاد الضأن
[والسغل السيء الغذاء][21] .
والصقل الفرس الطويل الصُّقْل[22] .
والعمل المطبوع على العمل .
والغزل صاحب الغزل .
والنزل المكان الصُّلْب السريع السيل . ويقال مكان نقل أي ذو حجارة . وفرس نمل القوائم للذي لا يكاد يستقر .
ومطر هطل للكثير الهَطَلان .

(م) الحرم الحِرْمان[23] .

ويقال فرس خذم أي سريع ، ورجل خذم أي طيب النفس . والخصم الشديد الخصومة .
وهي الرحم . والرقم الداهية .
والزهم الكثير الشحم .
ويقال نبت[24] سنم أي مرتفع . وبعير سنم أي ذو سَنَام غليظ .
والعرم المُسنَّاة .
ويقال رجل فهم .
ورجل قصم أي سريع الانكسار . والقضم السيف الذي طال عليه الدهر فتكسر حده .
والكلم جمع كلِمة .
ونعم لغة في نَعَم . والنقم جمع نِقمة .
وهرم من أسماء الرجال .

(ن) الخشن الأخشن .

والدحن الخَبّ الخبيث .
ويقال هو قمن بكذا أي حرِيّ .

---

(20) زيادة من ق .
(21) زيادة من س . وهي في الصحاح .
(22) الصُّقْل الخاصرة (صحاح).
(23) قال ابن بري : الحرِم الممنوع ، وقيل الحرام (لسان) .
(24) في سائر النسخ : بيت .
وعبارة الصحاح : ونبت سنم أي مرتفع ، وهو الذي خرجت سنمته ، وهو ما يعلو رأسه كالسنبل .